الفهرس

حول « مفهوم الايديولوجيا »

عبد السلام بنعبد العالي

ينبهنا الاستاذ العروى فى تقديمه لكتابه حول الايديولوجيا(1) الى ان هذا المفهوم «ليس مفهوما عاديــا يعبر عن واقع ملموس فيوصف وصفا شافيا ، وليس مفهوما متولدا عن بديهيــات فيحد حدا مجــردا . وانما هو مفهوم اجتماعى تاريخى ، وبالتالى يحمل فى ذاتــه آثــار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية عديد ، انه يمثــل «تراكم معــان» ، مثله فى هذا مثل مفاهيــم محورية أخرى كالدولة او الحرية او المادة او الانسان» (ص 5) . لذا فهو اذ يدعونا لمواصلة التساؤلات حول موضوع كتابــه ، فذلك ليس تواضعا من جانبه فحسب ، وانما وعيا منه، كمصنف كتــاب حول الايديولوجية ، بان المفاهيم «تتراكــم معانيهــا» وانها بالتالى ما تنفــك تؤول وتفكك . ولهذا ايضا

---

(1) عبد الله العــروى : **مفهوم الايديولوجيا (الادلوجة)**. المركــز الثقــافى الدار البيضاء. 1980 . ألقى هذا العرض خلال الندوة التى أقامها اتحــاد كتــاب المغرب حول هذا الكتاب (11. 11. 1980)

فهو لا يسعــى الى تحديد معنى هذا المفهــوم وتعريفه ، وانما يحــاول ، كما يقول ، «ان يرســم الخطوط المريضة لخلفيات المفهوم متوخيا توضيح المعانــى المضمنة فيه» (ص 6)• وهــو يــرد هذه المعانى الى ثلاثة : «مفهــوم الاداوجة/قناع الــذى يوظف فى المناظــرة السياسية ، ومفهوم الادلوجة/رؤية كونية ويوظف فى اجتماعيات الثقافة ، واخيرا مفهوم الادلوجة/علــم الظاهر الذى يوظــف فى نظرية المعرفــة ونظرية الكائن ، فيقوم ببحث «تاريخــى ومفهومى» (ص 103) يترصد فيه نشــأة هاته المعانى ليقف عنــد بعض اللحظات الاساسية فى تاريخ الفلسفة، تلك اللحظــات التى اغتنى فيها هذا المفهــوم • لذا فهو يواجه مشكلــة قــراءة التراث الفلسفى وتأويل بعض الفلسفــات • فماذا كان سبيلــه الى هذا التاويل ؟

يعتقد الاستاذ العــروى ان ماركس ونيتشه وفرويــد ، هؤلاء المفكرين الذين اقاموا بالفعل مفهوم الايديولوجيا قد ارسوا، فى ذات الوقت ، نظرية فى التأويل • يقول : «يقول ماركس ان الادلوجــة تخفى مصلحة طبقيــة ويعلل قوله استنــادا الــى تطور التاريخ • يقول نيتشه ان القيــم الثقافية اوهام ابتدعها المستضعفون لتغطية غلهم ضد الاسياد ويعلل قوله استنادا الى قانون الحياة • يقول فرويد أن انتاجات العقل تبريرات خلقهــا الانسان المتمدن لمعارضة دفع الرغبة الجارف ويعلل قوله استنادا الى طبيعة الانسان الحيوانية• من الواضح أن هذه الاقوال تحتوى على بنية مشتركة : ان الافكار رموز لا تحمل حقيقتها فيها ، بــل تستر حقيقــة باطنية • وفى هذا الستر ذاته تومــىء اليه • وبتأويل ذلك الايماء نكتشف عن الحقيقة المستورة » (ص 42 ــ 43) (2)•

سنحاول هنا نشرح هذا النص ، أو على الاصح تأويلــه

(2) جميع الابرازات من عندنــا •

على ضوء الكتاب بمجموعه . اذ ان الدلالة التى يتخذها ضمن الكتاب هى التى ستحدد، فى نظرنا مدى اهمية المساهمه التى قام بها الاستاذ العروى .

لكن ، علينا ، قبل ذلك ، ان نستخلص النتائج المباشرة لهذا القول . ان ما يعنيه هو ان الافكار ، عند ماركس ونيتشه وفرويد ، علامات خبيثة كما يقول (فوكو)، وانها لا تعبر عن واقع ، انها لا تكشف الواقع الا بمقدر ما تحجبه. انها مجال حضور المعنى وغيابه ، مجال ظهوره وتستره. وهذا يتنافى مع نظرية فى التأويل تدعى ان بامكانها أن تستحضر المعنى بكامله ، تستحضر الحقيقة . انه يتنافى مع فلسفة الحضور وهذا هو الاسم الآخر الذى يطلقه (هايدغ) على الميتافيزيقا . لقد أقام هؤلاء نظرية فى التاويل بمقتضاها يصبح الباطن مفعولا للسطح ، والحقيقة مفعولا للخطا ، ويصبح المعنى فى تباعد بينه وبين نفسه (وهذا هو ما يطلقون عليه اللاشعور) ، ولقد اثبتوا ان التأويل عملية لا متناهية وانه ليس بحثا عن معنى أول وحقيقة اصلية ، وانما هو اثبات لأولويات واسبقيات تعطى لمعنى على آخر .

الظاهر اذن ان تقنية التأويل التى تفرض نفسها هنا ، فى كتاب لا يسأل عما هى الايديلوجية ؟ (3) ما هو المدلول signifié ايديولوجية ؟ وانما ماذا يعنى الدال ايديلوجية؟ ما هى الاستخدامات المتعددة لهذا الدال ؟ الظاهر أن هذه التقنية تقتضى الحوار مع هؤلاء الذين نحتوه وشحنوه بمعان جديدة لا لاقامة مدلول مطلق يوفق بين جميع المعانى ، مدلول يكون قد تمتع عندهم جميعا بوجود فعلى اصلى اذا حدنا عنه نكون قد خنا التأويل الحق ، وانما لتفكيك هذا المفهوم واستبعاد

(3) ربما كان من الاليق أن يكون عنوان الكتاب ، كما سنتبين فيما بعد ، ما هذا الذى نسميه ايديولوجية ؟

ما ليس صادقا فيه .

لا سبيل هنا اذن ، ونحن نحاور تاريخ الفلسفة ، لا سبيل للكشف عن ماركس الحقيقى او نيتشه الحقيقى للوقوف عند هذا المفهوم عندهما : ذلك ان ماركس لم يعد ذلك الشخص بعينه وانما اصبح مفهوما ما فتئت معانيه تتراكم انه اصبح المدلول ((الماركسية)) ، وقل ذات الشىء عن النيتشوية والفرويدية.

فلن تؤول الماركسية ، عند الاستاذ العروى ، مبدئيا على الاقل ، الى حقيقة مطلقة ، وبالفعل فهى عنده ((علم العلوم او مجموع شروط العلمية)) (ص 84) ((ليس دورها كسب معلومات جديدة بل وضع سياج ضد اللامعقول وضد القفز فى ميدان الاساطير والاعتراف بالقصور والعجز)) (ص 84). ((ان أنلوجياء ماركس تزود القارىء بمادة خصبة موائية لظهور تاويلات مختلفة متعاقبة . لم تصل ــ ولن تصل فى الاغلب ــ الى صورة تقريرية ترضى الجميع لانه لو تحقق ذلك لعادت الماركسية معرفة مطلقة لا سبيل الى تعليلها من الخارج)) (ص 100)

معنى هذا ان الماركسية ليست تأويلا آخر للعالم ينضاف الى التأويلات السابقة ، وانما هى نظرية فى التأويل . انها علم العلوم على حد قوله او (علم الايديولوجيات) كما تشير (كريستيفا). الا انه لا يبدو لنا ان الاستاذ العروى قد توقف بما فيه الكفاية عند النتائج التى تلزم عن ذلك القول. اشير هنا باختصار الى تفكيك ماركس لبعض المفاهيم الاساسية التى كانت تقوم عليه نظرية المعرفة التقليدية . المعروف ان هذه النظرية تنبنى على فلسفة الكوجيطو اى على فلسفة تفترض ان وراء المعرفة ذاتا واعية تتحكم فى فعل المعرفة . وحتى ان هى تحدثت عن الوهم واللاشعور فهى تقيمها على علم النفس لا على علم الاجتماع . ان الاستاذ العروى لم يتساءل عما

قد يعنيه الحديث عن لاشعور ماركسى ؟ هل هو لاشعور ذات ناظرة ام هو لاشعور البنية الاجتماعية ؟ انه لم يحاول ان يخلص فمل المعرفة من المفهوم الافلاطونى الرؤيسة والنظرة لذا لم يعرض لنصوص التوسير حول القراءة حيث يحاول هذا الاخير ان يحدد اللاشعور عند ماركس «كتباعد بين الواقع وبين نفسه ، تباعد من صميم البنية» (4) وحيث يكون الناظر والقارىء اولا هو البنية ذاتها بحيث تقدم نفسها للدارس مقروءة مؤولة . ثم ان الاستاذ العروى لم يتساءل عما اذا كانت نظرية التاويل عند ماركس تتنافى مع القول بنزعة تاريخية عنده : لذا فهو لم يعرض لمناقشة موقف التوسير بصدد تاريخانية ماركس عندما بين ان التاريخانية لا يمكن ان تكون الا فلسفة الحضور اى فلسفة تتنافى مع نظرية التاويل .

لم يقم الاستاذ العروى اذن باستخلاص النتائج التى تتمخض عن قولنا بان ماركس مؤسس لمفهوم الايديولوجية (بل وللادلوجياء اى لدراسة الاسباب التى تمنع الذهن من عكس مباشر لبنية الاشياء) ولعل ذلك ليس راجعا لضيق المجال (اذ ان اصل الكتاب محاضرة) وانما لسبب أهم هو ان ماركس ليس عنده اساسا ذلك الذى تحدثنا عنه . هناك فى كتاب العروى ماركس آخر «صاحب نظرية عن الكائن» (ص 109) «يميز بين الحق والباطل بين الوهمى والواقعى» (ص 85) ولا يعتبر الوهم مؤسسات فعلية ، يقول بذات فعالة فى التاريخ هى البروليتاريا «التى لها وحدها مصلحة بديهية فى معرفة الحقيقة وعدم الاكتفاء بعلوم الظاهرات كما تفعل الطبقات الاخرى . ونرى هكذا ان الضامن الحق لمعرفة الحق هو ارادة تلك المعرفة» (ص 85) انه ماركس الذى

---

(4) L. Althusser : **Lire le capital** T 1 p. 14 F.M. Paris

يفسر المعرفة بحسن الارادة ويبحث ، مثل نظريات المعرفة التقليدية ، عن ضامن منطقى وبداية مطلقة «الأس عند ماركس كما عند روسو وهيجل هو فى الوقت ذاته البداية الزمنية والاصل المنطقى» (ص 99) .

ليست الماركسية فى النهاية نظرية فى التأويل بل انها «تجيب على السؤال التالى : ما هى الاسباب التى جعلت الفكر الانسانى فى كل ادواره يرى الاشياء طبقا لدعواه هو لا طبقا لذاتها هى (اى الاشياء) ؟ » (ص 10) وكتاب «الرأسمال» «دراسة تاريخية عن تكوين النظام الرأسمالى فى الغرب انطلاقا من الاقطاع ومرورا بالتوسع الاستعمارى وتجميع العمال فى معامل يدوية . والكتاب فى الوقت ذاته تحليل لبنية كل نظام رأسمالى محتمل» (ص 99) . انه نقد للواقع الاقتصادى وليس «نقدا للاقتصاد السياسى» كما يقول عنوانه الصغير .

لعل كل هذا يتنافى مع النص الذى انطلقنا منه ، يتنافى مع قولنا بأن ماركس هو المساهم الاكبر فى ارساء مفهوم الايديولوجيا ، وانه يرفض للمعرفة كل ضامن ، وانه يعتبر ان الاعماق وليدة السطوح ، وانه ينظر الى الواقع لا كشىء فى ذاته وانما فى تباعده مع نفسه ، اى من حيث ان الوهم يشكل لحمته وسداه . ان هذا يتنافى مع ماركس الذى يقول عنه (فوكو) : «انه لا يؤول تاريخ علاقات الانتاج وانما يؤول علاقة تقدم نفسها كتأويل ما دامت تقدم نفسها كطبيعة» .

لا عجب اذن أن يؤول «تراكم المعانى» فى نظر الاستاذ العروى الى مجرد تحريف للمعنى الاصلى ، ولا عجب ان تصبح لا نهائية التأويل فى تاريخ الفلسفة مجرد حادث طارىء لا يحترم الحواجز الخالدة التى تفصل «الداخل» عن «الخارج» والاوساط الماركسية عن غيرها . يقول «نلاحظ اذن ان كل

تأويـل من التأويـلات المذكورة يخضع لظروف أزمة معرفيـة طارئة اما فى العلـوم الاجتماعية واما فى العلـوم الطبيعيـة . والجواب المقتـرح باسم ماركس يؤخذ فى الغالب من افكـار رائجة فى اوساط غير ماركسية» (ص 100) .

ان ظلت الماركسية نظرية فى التأويل ، فهى تبقى فى نظـر الاستاذ العـروى تحت رحمة النسبية وتهديد الوضعانية «اما الميدان الذى ندخل اليه للهـروب من نسبيـة الوضعانية فهـو ميدان الانتولوجيـة ، أى نظرية الكائـن الذى يطرح قضيـة الحكمـة اى العلـم المطلق الذى يكتشـف عن حقيقة الاشياء. وفى هذا المستوى نجد موقفين فقط : اما نفى السؤال وهو موقف الكنطيـة والوضعانيـة والذرائعية فى اشكالها القديمة والجديدة واما تقرير وجود الحكمة وهو موقف هيجل وورثته ومن ضمنهم مـاركس» (ص 108). ان اعتبار الماركسيـة نظرية فى التأويل وعدم النظر اليهـا اساسا كميتافيزيقا لا يعنى فى نظر الاستـاذ العروى الا وقوفا عند ظاهـر الامور : «نرى هكذا بوضوح لماذا تتعدد تأويـلات الماركسية . ان المادية الجدلية نظرية عن الكائن. من الماركسيين من يغض عنها الطرف ويجعل من الماركسية نظرية سياسية واجتماعية فقط فيقف ضمنيـا فى صف الكانطييـن والذرائعيين . اما الذى يأخذهـا بجد ويتعمـق فى سوابقهـا ولواحقها فانه يجد نفسه بالضرورة فى عشرة هيجل وتلاميـذه» (ص 108 — 109) .

ان ماركس — العروى فيلسوف تاريخانى يعطى السبـق المنطقى والفعلى للتاريخ العام على اتاريخ المحلى (هامش ص 34) و «يرجع الى التاريخ الكونى ليميز بين الوعي الصادق اى الحكم المطابـق للواقـع ، وبين الوعى الزائف اى الادلوجة» (ص 35) ونسبيته «نسبيـة نسبية بمعنى ان حقيقة زمن معين تعتبـر

مرحلة فى تحقيق الحقيقة المطلقة وبذا تكسب قيمة دائمة» (ص 75) لذا فالادلوجة فى نظره قناع «يدل الناظر المدقق على الحكمة والمعرفة المطلقة» (ص 108) . هناك اذن انطلوجيا ماركسية وتاريخ كونى وطبقة كونية بل ومعرفة مطلقة !

لا يتردد الاستاذ العروى بصدد نيتشه بين هذين الموقفين المتعارضين . ذلك انه لم يقم هنا بمثل ما حاول القيام به فيما يخص ماركس . انه لم يعرض لمختلف التأويلات التى اعطيت لنيتشه ولم يرصد مختلف معانى النيتشوية ، لم يقف عند نيتشه — هايدغ ، ونيتشة — كلوسوفسكى ونيتشه — ياسبرز ونيتشه — باتاى ونيتشه — دولوز مثلما وقف عند ماركس — مانهايم وماركس — لوكاش وماركس — التوسير . وانما حاول ان يبحث مباشرة عن نيتشه الحقيقى . حاول ان يؤرخ لنيتشه بعيداً عن نظرية التأويل ، وان يعطينا حقيقة نيتشه بعيدا عن مفهوم الايديولوجية . وهنا اقتصر على ما كان يقال قبل دروس هايدغر من ان نيتشه صاحب فلسفة وهى فلسفة حيوية، تمجد الجسم على حساب العقل ، والطبيعة على حساب الثقافة . فترد الانسان الى طبيعته الحيوانية وتهاجم مكتسبات الحضارة الغربية فتسقط فى عدمية مطلقة .

ان نيتشه فى نظر الاستاذ العروى يقدم لنا «نظرية حول الاوهام الانسانية تبرر ذاتها اعتمادا على البيولوجيا والاشتقاق اللغوى والتاريخ الوقائعى» (ص 38) . ومضمون النيتشوية «رفض المفاهيم التى شيدت عليها الثقافة العربية : العقل ، الحقيقة ، الانسان ترفض النيتشوية بعنف وتنقد نقدا لاذعا معتقدات الانسان المتحضر» (38 — 39) لذا فهى «ادلوجة مبنية على نقد الادلوجات» (ص 38) .

صحيح أن نيتشه يقيم جنيالوجيا تفضح الاوهام ولكن ،

هل الجنيالوجيا تعتمد الابيولوجيا (5) والتاريخ الوقائعى ؟ هل يصح الحديث عند نيتشه عن تاريخ وقائعى وهل يفصل نيتشه عالم القيم عن عالم الواقع ؟ (يقول العروى فى ص 44 : لقد تعلم الاجتماعيون الالمان من نيتشه ان العالم الانسانى عالم القيم ، مفصول عن عالم الواقع) . ألا يبعدنا هذا عن نيتشه صاحب نظرية التاويل ؟

الظاهر ان الاهتمام بالاشتقاق اللغوى عند نيتشه يتنافر وكل تاريخ وقائعى . ذلك ان معنى الاهتمام باللغة عنده هو نفى الاحالة ، نفى الواقعة الخام . فالقول بالواقعة الخام هو قول بحضور المعنى ونفى لخبث الرموز والعلامات . ان الدال عندما يحيد فهو يحيل الى دال آخر لا الى واقع فى ذاته . فالافكار لا تعبر ، وهى لا تكشف الا بقدر ما تحجب يقول زرادوشت : ((ان جميع اسماء الخير والشر ليست الا مجموعة من الرموز . انها لم تعد تعبر عن شىء . وانما هى تدل وتعنى)) لذا يؤكد نيتشه ، ((ليس هناك واقعة فى ذاتها. فكل ما يحصل ويتم ليس الا مجموعة من الظواهر التى انتقاها واختارها كائن مؤول)) ذلك ان نيتشه لا يلجأ الى اشتقاقات اللغة الا لانه ينفى الواقعة الخام ((ان ما يهمنا هو معرفة الكيفية التى تسمى بها الاشياء لا معرفة ماهيتها . مما يشتهر به شىء ما ، ان اسمه ومظهره وقيمته وقياسه ووزنه ، كل هاته الامور التى تنضاف الى الشىء بمحض الصدفة والخطأ تصبح ، من شدة ايماننا بها ، يشجعنا على ذلك تناقلها من جيل لآخر ، تصبح بالتدريج لحمة الشىء ويتحول ما كان مظهرا فى البداية الى جوهر ثم ياخذ فى العمل كماهية)) .

---

(5) سبق (لهايدغر) ان بين أن « ارادة القوة والصيرورة والحياة والوجود ، أن كل هاته الامور تعنى فى لغة نيتشه نفس الشىء .» (أنظر كتابه دروب موصدة صفحة 189) .

ان الجنيالوجيا ليست تاريخا وقائعيا يفصل عالم القيم عن الواقع وانما هي تحاول أن تربط معانى الواقع بالمنظورات perspectives او التطلعات التى تعطيها قيمة ، وهى تدرك تلك التطلعات من حيث هى ارادات قوة متفاضلة. ان الجنيالوجيا ليست رفضا للقيم ، انها لا تهتم بالقيم فى ذاتها وانما بقيمة القيم . انها سيميلوجيا تنظر للقيمة كعلامة ورمز فتسعى الى فضح العملية التى يتم بها خلق المثل العليا. يقول نيتشه «ان الحكم الاخلاقى لا ينبغى ان يؤخذ فى حرفيته لانه لن يكون حينئذ ذا معنى ، وعلى العكس من ذلك ، اذا اخذ كسيميلوجيا فانه يكون غنيا بالدلالات ان الاخلاق ليست الا لغة رموز» . ان نيتشه عندما يسائل منظورا معينا فهو لا يسأل عن مدلول ، لا يسأل مثلا ما هو الحق فى هذا المنظور وما قيمته ؟ ان سؤال نيتشه ، كما بين دولوز ، هو السؤال عمن ؟ Le qui ? لا نسؤال عمن هو الصادق او الخير ، بل عمن يصنع جمال الاشياء وحقيقتها (مثلما يتساءل ماركس عمن يوجد وراء القيم السائدة فى العالم الرأسمالى) لذا يقول نيتشه فى (أفول الاصنام) : «اننا لا نستطيع تفنيد المسيحية مثلما لا نستطيع ان نفند امراض العين (...) ان مفاهيم الصدق والكذب لا قيمة لها فى مجال المنظارية والبصريات ولا يكون علينا الا ان نفهر موقف الخداع والنفاق الذى يأبى قبول هذين النقيضين كنقيضين» . ان نيتشه لا يفند المسيحية باسم حقيقة ما. ولكنه لا يرفض الحقيقة وانما يرفض ان نفصل فصلا وضعيا الحقيقة عن الخطا يقول فى نفس الكتاب ، «لقد محونا عالم الحقيقة ، فماذا يتبقى لنا ، أهو عالم المظاهر ؟ كلا . اننا عندما قضينا على عالم الحقيقة محونا عالم المظاهر» . يريد نيتشه ان يقيم اللامعقول فى العقل والخطا فى الحقيقة واللاوعى فى الوعى . يريد ان يقيم الايديولوجيا .

ان الاجتماعيين الالمان اساؤوا تاويل نيتشه لانهم جعلوه يفصل الواقع عن القيمة . فلم يعاملوه كصاحب نظرية فى التأويل. لذا فان منظوريته تتميز عن منظوريتهم (وهاته نقطة اساسية لم يتوقف عندها الاستاذ العروى لانه لم يقف عند تراكم المعنى الذى عرفته النيتشوية) ان كلا من نيتشه ومانهايم تحدث عن المنظورية الا ان ما يميز منظورية الاول عن منظورية الثانى هو ما يفصل نظرية التأويل التى تحدثنا عنها عن التأويل الميتافيزيقى . فمنظورية نيتشه تفاضلية تحاول ان تقضى على ازواج الميتافيزيقا بتفكيكها ، اما منظورية مانهايم فهى لم تستطع ان تخرج عن الزوج الميتافيزيقى نسبى/مطلق. وهذا ما يبرر كون نيتشه لم يحتج الى انكار المنظورية ولم يقل مثل مانهايم (بالمثقف المتحرر من كل انتماء طبقى) .

بقى علينا ، كى يكتمل لنا تحديد الدلالات التى يتخذها النص الذى انطلقنا منه ان نقف قليلا عند التأويل الذى يعطيه الاستاذ العروى لموقف فرويد . فليس فرويد الذى يقدمه لنا كتاب العروى هو صاحب كتاب (تأويل الاحلام) . انه اساسا فيلسوف فى التاريخ يرى ((ان هناك تطابقا بين النفسانية الفردية والانظمة الاجتماعية والتاريخ الانسانى العام)) (ص 41) . فلا عجب اذن ان يؤول التحليل النفسى الى نظرية تؤول الاخلاق والاديان والاساطير والنكت والاخطاء العفوية بحيث ((اذا ما اولنا هذه الامور حسب قانون الرغبة فانها ترشدنا الى الحقيقة الاساسية التى تجرى على الانسان كما تجرى على باقى الكائنات الحية)) (ص 42) .

لن نقف طويلا عند اغفال الاستاذ العروى لتحديد معنى اللاشعور الفرويدى ومنزلة الرمزى بالنسبة للانسان ، والتفريق بينه وبين الخيالى . ويكفى ان نقول انه يقدم لنا هنا

ايضا فرويــد الحقيقى الذى يبحث عن حقيقة اساسية ، وان نذكر بأن استبعــاد الوهم وقهر الايديولوجية عند فرويد ليــس فى حاجة الى هاته الحقيقة الاساسية «التى تجرى على جميــع الكائنــات» وانما يتطلب تكوين معنى لم يوجــد قط «فليــس فرويد ، كما يقــول دولوز ، منقبــا فى اغوار الانسان واعماقه ليكشف عن المعنــى الاصلى بل انه يبحث عن اليــات اللاشعور الذى ينتــج المعنى وينتجه انطلاقا من اللامعنى» .

صحيح ان التحليل النفسى يعطى لكل شىء معنى ولكنــه يعتبــر أن المعنى ينكشف فى تباعد بينه وبين نفسه . هناك هوة تفصل المعنى عن ذاته عند فرويــد . وربما كان هذا أساسا هو اللاشعــور عنــده .

الظاهر اذن ان الدلالات التى يتخذها النــص الاساســى الذى انطلقنــا منه عبر الكتــاب تخالف اشد الاختلاف معنــاه المباشــر . والظاهر ايضا ان الاستــاذ العروى لا يدرك النتائج الهامة التى تترتب على قولنا أن كلا من ماركس ونيتشه وفرويد قد غيروا ، كما يقول فوكــو ، معنى الدليل والكيفية التى كــان يؤول بها ، وانهم ارســوا مفهوما لم يكن له أن يعــرف فيما قبل هو مفهوم الايديولوجيا واقاموا نظرية فى التاويل تريد أن تتجاوز الميتافيزيقــا وتقلب الافلاطونيــة والهيجليــة وتقضــى علــى الثنائيــات الميتافيزيقية . ولعل هذا هو ما يجعله فى النهاية يبحث عن القاســم المشتــرك الذى يوجد بين مختلف الاستعمالات التى استخــدم فيها مفهوم الايديولوجيا بما فيها استعمــال عصــر الانوار واستعمال هيجل والرومانسيين «فكل استعمال يفــرق بين الظاهر والخفى ، بين الملموس والحقيقى ، بين الوجــود

والقيمـة (6) ، ويحدد بالتالى الايلوجية انطلاقا من الحق الثابت، فيرفــع قنــاع الايلوجة عن الحقيقــه الباطنية)) (ص 104) .

نتذكر الآن النــص الذى انطلقنا منه : ((ان الافكـــار رموز لا تحمل حقيقتها فيها ، بل تستر حقيقة باطنية ، وفى هذا الستر ذاته تومىء اليها)) . ان هذا النص يوحد بين الظهـــور والاختفاء ، بين الظاهر والباطن ليقضى على كل ثنائية وليؤسس نظرية فى التأويل فينفصل عن منطق الذاتيــة ويقلب الافلاطونية يقــول نيتشــه : ((ما هو الظاهر عندى ؟ من المؤكد انه ليــس عكس الوجود . فما عسى يمكننى ان أقول عن الموجود مهما كان أملهم صفات ظاهــرة . ان الظاهر ليــس عندى قناعا لا حياة فيه . الظاهر عندى هو الحيــاة والفعالية ذاتها . أنها الحياة التى تسخــر من ذاتهــا كى توهمنى بأن لا وجود الا للمظاهر)). اما النــص الآخــر فهو يلــح على الفصل بين الظاهــر والباطن، بين الوجود والقيمــة ، بين الحقيقة والخطأ . لــذا فهو يصالــح بين مــاركس وهيجل ، ويقذف بنيتشــه وفرويد داخل تاريــخ الميتافيزيقــا وفى عصر ما قبــل الايديولوجيــة .

وبعــد ...

اذا كنت قد سمحت لنفسى باصدار بعض الاحكام حــول كتاب لمفكــر من اكبــر المفكرين عندنا واكثرهم رصانة فذلــك أساسا استجابة لدعواه بمواصلة التساؤل حول موضوع كتابه . اذ ان الافكــار التى جاءت فى هذا الكتــاب لم تكن لتظهـــر وتفصح فحسب ، وانمــا كــانت تضمر وتحجب فوراء المفكــر فيه هناك دوما ما لم يفكــر فيه . واذا كان البعــد كبيرا بيــن الظاهــر والباطن كانت الافكــار عميقــه . فاللامفكر فيه لا يكون غنيــا الا عند كبــار المفكرين كما يقول هايدغر .

---

(6) مما يؤكد التردد الذى يطبع موقف الاستاذ العروى بصدد ماركس ما نجده فى صفحة 71 : « ان ماركس يضع القيمة فى الواقع فى حين ان فيبر يفصــل القيمة نهــائيــا عن الواقع » .

مفهوم الصحة والمرض بين نمثلات الثقافة المغربية ومنظور مستشفيات الامراض العقلية بالمغرب

عمران عبد الرحيم ـــ التويجـــرى محمد

رغم ما تثيـــره مستشفيات الامراض العقلية ، فى شكلهـــا الحالى كمؤسسة اجتماعية ومعقل ((للمريض والمرض عقليا)) ، من جدل واشكاليـــات أساسية ـــ داخل المجتمع الغربى ـــ حول طبيعة ما يسمى ((بالامراض العقلية)) ومسبباتها ووسائل العلاج والتقنيات المستعملة فى هذا المجـــال ، وحول وظيفتها الاجتماعية ـــ التى من وراءها تستمد مشروعية تواجدها ـــ والتى أصبحت تتمثل حاليا ، فى ((الادماج الاجتماعى (L'insertion sociale) للمريض عقليا مرورا بعلاجه . رغم كل هذا ، فاننا نجـــــــد مستشفيات الامراض العقلية بالمغـــرب كمؤسسة اجتماعيـــة ـــ أسندت اليها مهمة الاعتناء بصحة المواطن المغربى نفسيا واجتماعيا؟ تعمل ، بل وتفضـــل العمل فى صمت كلى بعيـــدة كل البعـــد عن المجتمـــع الذى تعمل داخله وتنتسب اليه . متبنية بذلك سلوكـــا دفاعيـــا تلجأ اليـــه كل مؤسسة اجتماعية ((دخيلة)) ، غير قادرة

على التوافـــق Adaptation مع طبيعة المجتمع الذى تنمى اليه، ولا على تجــاوز الاشكاليات التاريخية والاجتماعية والصحيــه التى تحملها معهـــا . وهو الشىء الذى سوف نعمل على ابرازه من خـــلال هذا المقال ، الذى نـــود ان يكون بداية نقاش جـــاد وفعـــال فى هذا المجـــال .

ان الكلام عما يسمى «بالامراض العقلية» ، يجرنـــــا اولا للكلام عن الطب العقلى ذاته La Psychiatrie الذى يبقى أساســـا فرعا من فروع العلوم الطبية Les sciences médicales وتخصصاتها.

لقد عمل الطب العقلى فى منطلقه وما يـــزال الى حد بعيد ، فى دراستـــه لطبيعة «الامراض العقلية ومحدداتها وبالتالــــــى تشخيصاتها ووسائل علاجها ، من خلال وجهة نظر الطب العام : «médecine générale» وهو النموذج Le modèle الذى ســـاد خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ــ، تمثل ذلك فى مختلف التخصصات الفرعية التى عرفها هذا المجال ــ مجال الطب العقلى ــ كالطب العقلى العصبى ، والطب العقلى الجراحى والصيـــدلـــى وغيرهـــا .

ولاستيعاب طبيعة هذه التخصصات ، لابد من استيعـــاب الجانب النظرى الذى من خلاله تنطلق فى دراستها للانســـــــان ومكوناته ، ثم بالتالى فى مرضه ومسبباتـــه .

فالانسان من خلال هذه الزاويـــة ، لا يخلو عن كونـــه عضوا بيولوجيا يخضع فى محدداته وأنماط سلوكه الى القوانين العضوية Les organiques ، اضطرابات سلوكه تبقى وليـــدة اصابات واضطرابـــات عضوية بيولوجيـــة دماغيه ، علاجها يتم عن طريق علاج هذه الاخيرة لا أقل ولا اكثـــر .

وهى نظرة تبقى فى أساسها عضوية ميكانيكية ووظيفيـــة

للانســـــان Oorganio-mécanisme et fonctionnelle

وهذا ما جعل الطب العقلي يعرف ازمـــة خانقة ويتعـــــــرض الانتقادات حادة ، سواء من طرف المختصين والعاملين فى هذا الحقل أو خارجه ، بعد أن اثبـــت ــ الطب العقلي ــ فى بعده البيولوجي ، عجزه وقصوره على استيعاب الانسان فى شموليته. وبعد ان أثبتت العلوم الانسانية ، قدرتها على استيعاب وادراك طبيعـــة هذه ((الامراض العقليـــة)) ومسبباتها ، من خلال منظور دیناميكـــى نفسي اجتماعى ثقافـــى ، وتمثـــل جديد لمفهومـــــى ((الصحـــة والمرض)) . بحيث لم يعد الامـــر يتعلق بالامـــراض العقليـــة ، بقـــدر ما أصبـــح يتعلـــق : باضطرابات سلوكية نفسية اجتماعية ، وبمجال : علم النفس المرضى Psychopathologie بـــدل مجال الامراض العقليـــة .

وفى عملية استدراك وتوافق مع هذه الحقيقة والتمثـــلات الجديدة nouvelles représentations للانسان ــ فى صحته ومرضه ــ أصبح الطب العقلي يعمل ، او يحاول العمل ، جنبا الى جنـــب مع مختلف تخصصات العلوم الانسانية : من علم النفس وعلـــم الاجتماع والانتروبولوجيا ، تمثل ذلك فى تخصصات جديدة : كالطب العقلي الاجتماعـــى والطب العقلي الايثنولوجى Ethmopsychiatrie لكـــن دون ان يتمكـــن من التخلـــص نهائيـــا ــ وكمؤسســـــــة اجتماعيـــة فى شكلها الرسمى ــ من قبضـــة العلـــوم الطبيـــة ((وخواطرها الاوليـــة)) fautasmes originaires التى سبـــق الحديـــث عنهـــا .

وقد تولد عن هذه الازمة التى عرفها الطب العقلي ــ داخل المجتمـــع الغربى ــ ثلاث اتجاهات اساسية فيما يتعلق ((بالامراض العقليـــة)) وعلاجهـــا .

1) اتجاه تقليـــدى : عضوى بيولوجى ، ظل حبيـــــــس

المنطلقات الاولية لمفهوم الامراض العقلية . عمل من ناحية على استنباط وسائل علاجية جديدة ، خاصة في المجال : البيوكيماوي Bio-chimique ، تمثلت في (مخدرات) جديدة داخل ما يعرف ب : «Psychotrapes» ، ومن ناحية اخرى عمل على العودة الى وسائل علاجية متجاوزة ، مع ادخال تحسينات تقنية عليها : كالعلاج عن طريق : الصدمات الكهربائية électrochocs مثلا .

ب) اتجاه وسطي : حاول تجاوز هذه الازمة بتبنيه للبعد النفسي الاجتماعي ((للامراض العقلية)) ، وهو السائد حاليا في مجال الطب العقلي .

ج) اتجاه ثالث : تمثل في : (نقيض الطب العقلي Antipsychiatrie اي في رفضه للطب العقلي في اسسه وقواعده ومفهومه للامراض العقلية . ذلك ان الطب العقلي — من خلال هذا الاتجاه — لا ينفصل في مسلماته وتصنيفاته وتقنياته ومؤسساته ، عن الايديولوجيا السائدة التي تعكسها ما يسمى (بالاغلبية السوية)) ! ومن ثم فان ما يسمى (بالمريض عقليا)) . لا يعدو ان يكون سوى (المريض الاخرين)) (الاسوياء)، اى ضحيتهم و (كبش فدائهم Bouc-émissaire

ان الشيء الذي يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار داخل ما يسمى بالامراض العقلية ، ليس هو المرض العقلي في حد ذاته — لان ذلك يبقى من اختلاق ((الاغلبية السوية)) ، وانما : حدة المعاناة L'excès de la souffrance وطبيعتها ، التي يجتازها الفرد خلال مرحلة من مراحل حياته . انطلاقا من ان ((المعاناة La souffrance في حد ذاتها ، تبقى مبدءا من مبادىء الحياة ومكونات الوجود الانساني ، وان كل فرد — داخل ظروف نفسية واجتماعية معينة — يبقى قابلا لان يقع عرضة لحدة

المعاناة . وبالتالى ــ ومن خلال هذا المنظور ــ فان المطلوب ليس هو عزل الفرد ومعالجته داخل مستشفيات الامراض العقلية ، وانما قبوله اجتماعيا ومآزرته نفسيا ، ومسايرته فى حدة معاناته الى ان يتمكن من الخروج منها. هذا خارج كل مؤسسة علاجية ، لان كل مؤسسة من هذا النوع تبقى فى أساسها مؤسسة قمعية Répressive

من خلال هذه النظرة الموجزة لما يسمى باشكالية «الاستيلاب العقلى «L'aliénation mentale» فى مختلف أبعادها ، يتبين لنا ما عرفه المجتمع الغربى عموما ــ والى حد الآن ــ من تمثلات جديدة لما يسمى بالمريض عقليا ، بحيث اصبح المنظور الديناميكى النفسى الاجتماعى هو السائد حاليا ، لا فقط فيما يتعلق بطبيعة «المرض» ومحدداته ، ونوعية العلاج وتقنياته، بل حتى على مستوى العلاقة الجدلية القائمة بين الفرد كمعالج. ومستشفى الامراض العقلية ــ بجميع هياكله ومكوناته ــ كمعالج . وقد بدا هذا جليا فى التجربة الايطالية التى عرفت حدا لوجود مستشفى الامراض العقلية كمعقل خاص لما يسمى بالمريض عقليا (1978) ، بحيث أصبح الفرد يعالج كباقى افراد المجتمع داخل المصحات والمستشفيات العمومية . وهى بهذا تكون قد ساهمت فى جعل حد لذلك التمثل والمنظور الاجتماعى الغربى لمفهوم : «المرض والمريض عقليا» والذى عكسته منذ البداية مستشفيات الامراض العقلية كمؤسسة اجتماعية .

ان الكلام عن التجربة الايطالية ــ وان كانت رائدة فى هذا المجال ــ لا يعنى انها قد وضعت حدا لما يسمى باشكالية الاستيلاب العقلى داخل المجتمع الايطالى ــ لان ذلك يبقى فى اساسه مرهونا بمدى قدرة المجتمع ككل ، على تجاوز متناقضاته من خلال علاقاته وبنياته الاجتماعية وفئاته المتصارعة ــ

وانما تكون قد ساهمت والى حد بعيد فى تعميق الرؤيـا فى هذا المجال ، وعكس منظور اجتماعى مغاير لمفهوم « المرض والمريض عقليا » تمثلـت بعض أبعاده داخل المجتمعات الغربية الاخـرى : فى ذلك الانفتـاح على الواقع الخارجى ، الذى اصبحت تتميز به مستشفيات الامراض العقلية ، وفى ارتباطها جـدلا مع ما يسـود المجتمـع من تيـارات فكرية وثقافيـة وسياسية .

اذا كان هذا قد حصل داخل المجتمع الغربى ، فـــان مستشفيات الامراض العقلية بالمغرب ـ والتى تبقى وليده هذه الاخيرة فى شكلها ومنظورها العضوى الآلى، لم تعرف شيئا لا من حيث ذلك المسد الجدلـى لمفهومـى الصحـة والمـرض ، ولا من حيث ارتباطها بجـذور الثقافة المغربيـه مـن الناحيـة التاريخية والاجتماعية والنفسية والصحية . بحيث انهـا ظلت والى حد بعيـد حبيسة تلك التمثلات والمنطلقـات الاوليـة ـ العضوية الآليـة ـ لمفهوم وطبيعة الامراض العقلية فى منظارها الغربى والتى لـم تكن تخلو من بعـد وهدف استعمـارى فى مكوناتها وخلفياتها . ذلك ان مستشفيات الامراض العقليـــة كمؤسسة اجتماعية ، فى بنيتها وشكلها الحالى (الفرنسى الاسبانى) تعنى (بصحة المواطن المغربى!) ، لم تعـرف وجودها الا عنـد أوائل الثلاثينات من هذا القـرن (1937) . عملـت فى بعدها الاستعمارى ـ وتحت أشراف أطباء عسكريين ـ على « ترويض Dréssage و ومراقبـة Contrôle المواطن المغربى فـى انتفاضـاته ورفضه لهـذا الواقع الاستعمارى من ناحية ، ومن ناحيـة أخرى (كمخبـر Laboratoire تجربـة وتقنين وسائل العـلاج التى لم تختبـر بعد ، ولم تثبـت فعاليتهـا فى هـذا المجـال ـ والتى تجرى عـادة على الحيوانات ـ من : مخدرات Psychotrapes وصدمـات كهربائيـة électrochocs وغيرها . وهذا ما تثبته بعـض الملفات الاستعمارية المتواجدة داخـل

بعض مستشفيات الامراض العقلية : كمستشفى الامـــــراض العقلية بتطوان ، ومستشفى ((الرازى)) بســـلا ، أو كما يسمى عنـــد عامة الناس ((بمستشفى المغازى)) وهى تسمية قد لا تخلـــو من معنى ودلالـــة رمزية واجتماعيـــة .

واذا كان الاستعمار قد عمل على اقحـــام نموذج معيـــن لما يسمى ((بالمريض عقليا)) من خلال تأسيسه لمعتقلات وملاجىء «Asiles» فى صيغة مستشفيات صحية ، كان من المفروض تجاوزها وفقـــا لطبيعة المجتمع المغربى وثقافته بجلاء المستعمر عن حضيرة الوطن ، فان المغرب لـــم يـــر الا تدعيمـــا وتثبيتـــا لهذا الواقع الاستعمارى ، ـــ يبدو جليا ـــ من خلال الاعتمـــــاد الشبه المطلق ـــ فى هذا المجال ـــ على المساعدات التقنيـــــة والخدمات الطبية الاجنبية ـــ والتى لا تخرج فى مجملها عن البعـــد العضوى البيولوجى ـــ الذى سبق الكـــلام عنه ـــ لما يسمى بالأمراض العقليـــة . ان نظرة عابـــرة على مجمل مستشفيـــات الامراض العقلية بالمغرب تجعلنـــا نقف على صدق هذه الحقيقة المـــرة ، بحيث نجـــد العلاج البيوكيماوى ـــ اى العلاج عـــن طريق المخدرات «Psychotrapes» هو السائد حاليا ، رغـــم ما لهـــذه المخدرات من انعكاسات سلبية وأضرار مرضية ومزمنة Chroniques على المفرد المعالج . وهذه حقيقة لا أظنها تخفى عن جل العاملين حاليـــا فى هذا الحقل بالمغرب ، فالمخـــدرات لا تعالج ولا تمحى المعانـــاة ، بقدر ما تعمل على تهدئتها لفتـــرة قد تطـــول مدتها أو تقصر ، وفقا للواقـــع النفسى الاجتماعى للشخـــص المعالـــج .

وهذا ما يجعلنا نتساءل عن جدوى وفعالية هذه المستشفيات فى شكلها الحالــى داخل المجتمع المغربــى ؟

ان الدراسات فى هذا المجال تثبت يوما عن آخر ، أن مــا يدخل تحت مفهوم الامراض العقلية يبقــى بدون معنى ودلالة اذا لم نحــاول ادراكها واستيعابها داخل النسق الاجتماعى والثقافى الذى من خلاله تأخذ مدلولها (كحالات مرضية Cuspathologiques ومن منظور نفسى أجتماعى دينامیکی ینظر الى معــانــاة الفرد وأعراضه وبالتالى الى سوء توافقه الاجتماعى ، باعتبارها وليدة صراع نفسى اجتماعى ، داخل العلاقة الجدلية القائمة بين الفرد والاخرين فى بعديها النفسى والاجتماعى .

ان ((الاعراض المرضية Les symptômes)) ومن خلال هذا المنظور ــ لا تعدو عن كونها تشكيلات دفاعية وتعبيرات لغويــة تبقى فى اساسها موجهة للاخرين ، من خلالها يعبر الفرد عــن الخلل الحاصل فى علاقاته بالآخرين ، وعن صراعاته التى تهدده بالانهيار . فالانسان فى احباطاته ، وطلبه للحب مثلا ، يستعمل لغة أو لغــات يعرفها ويتقنها ، تبقى من تلقين المجتمع وثقافته ، كما أنه فى صراعاته والمعاناة المتولــدة عنها ، يستعمل انمــاط أو نماذج سلوكيــة تبقى أساسا من نسيج ثقافة هذا المجتمــع وتمثلاتــه لطبيعــة هذا الصــراع ومحدداتــه .

وبالتالى ولفهم مدلول هذه اللغة وطبيعة هذا الصــراع وميكانيزماته والمعانــاة المتولــدة عنه ، على المستوى الرمزى والنفسى والاجتماعى ، يبقى لا بد من فهم طبيعــة المجتمع ذاته فى علاقاته الاجتماعيــة وانمــاط سلوكه ومعتقداته ومقوماتــه الفرديــة منهــا والجماعيــة .

ان نظرة تاريخية اجتماعية ــ ولو مقتضبــة ــ لطبيعــة المجتمــع المغربى فى تشكيلاته وبنياته ونمط العلاقات الاجتماعية

السائدة ، تجعلنا نــدرك بأن المجتمع المغربى ــ رغم ما عرفه من تغييــرات نسبيــة ــ يظل مجتمعــا ((جماعيــا)) • حيث ان الفــرد يعيش داخل قنوات وعلاقات اجتماعية اكثر امـــدادا واتساعا منها داخل المجتمعــات الغربيــة •

وبالتالى فان المجـال ((«champs»)) النفسى والاجتماعى الذى يتحرك داخله ، محدداته آلتى تعمل على مستوى جماعى اكثر مما تعمل على مستوى فــردى ثنائــى •

ان علاقات الطفل ، رغباته ، اشباعاتــه وتوحداتــــه «identifications» وبالتالى تكوينه النفسى ، تتم على مستوى جماعى اكثر مما تتم على مستوى فردى ثنائى ، كما ان مكانتــه و ((هويته الاجتماعية Identité Sociale)) تتحدد داخل ، ((الجماعــــات المرجعية)) التى ينتمى اليها ويعمل داخلها ، والتى تتميــز بدورها بوجــود جماعـــى •

وعليه فانه يبقى من المتعذر استيعاب ماهية وجود المواطن المغربى ، ومحددات سلوكه خارج هذا الاطار المرجعى الجماعى• فمحددات سلوك الفرد كفــرد ، ليست هى بالضرورة محــددات سلوك الجماعة ، ولا سلوك الفرد داخل هذه الجماعة • وهذا ما تبينه الدراسات الميدانية فى مجال ((علم النفس الاجتماعى)) (4) ان ادراك الفرد وتقييمه ـــ على سبيل المثال ـــ لموضوع ما مـــن خلال قدراته المعرفية Coguitives يتأثر ، بل ويختلف عادة عما كان عليه عنــد وجوده داخل الجماعـــة ، وذلك لما للجماعة من معاييــر ومحددات تختلف عن معاييــر ومحددات سلـــوك الفــرد ((المعرفية منها والانفعالية : Coguetives et affectives

ومن هنا نجد انفسنا أمام اشكالية منهجية ـــ تطرح نفسها علينا بالحـــاح ـــ وهى مدى ((الصدق Validité))، ((وثبــــات

«Fidélité»)) الدراسات الغربية فى هذا المجال من حيث تصنيفاتها المنهجية لنوعيــة وطبيعة ما يسمى بالامراض العقلية ومكوناتها وبنياتها داخل المجتمـــع المغربى ؟!

لقد ظل المجتمع المغربى ــ بمؤسساته العقلية ــ مصــدرا لهذه التصنيفــات التى كان يهدف من وراءها الى اقامة معرفــه منهجية ثابتــة ، قائمة على قواعد عامة وشاملة فى ادراكهــا واحتوائها لطبيعــة الامراض العقليــة وأعراضهــا . غير ان الدراسات والمناظرات المحلية (5) ــ داخل المجتمع الغربــى ــ والمقارنة فى هذا المجــال اثبت تدريجيا ــ قصور هذه التصنيفات والتشخيصات التقليدية : (امراض عصابية ــ امراض ذهانيــه) داخل المجتمـــع الغربى نفسه ، بتطور المجتمع والتغييرات التى يعرفها اقتصاديــا وسياسيا واجتماعيا .

وهذا ما تبينه وبصورة أكثر قنــاعة الدراســات الميدانية لمدرسة ((علم النفس المرضى الافريقى (6)
Psychopathologie Africaine
((بداكــار)) عاصمة السنيغــال تحت اشراف الدكتور كولومــب

وهى دراسات يتبين من خلالها مــدى صعوبة التمييــز بين ما هو مرضى وما هو سوى داخل المجتمـــع الافريقى من خــلال ثقافته ومعتقداته وتمثلاته لوجوده ــ (والتى تبقى متباينة عما هى عليــه داخل المجتمــع الغربى) ــ وبالتالى قصــور المنظــور الغربى فى تصنيفاته وتشخيصاته المرضية ، على احتـــــواء الاضطرابــات النفسية الاجتماعية ــ للانسان الافريقى ــ فــى شموليتها ، وعلى استيعاب مدلولها على المستوى الرمـــزى والنفســى والاجتماعــى .

الشىء الذى جعل هذه المدرسة تعمل جاهدة على تجــاوز هذه الاشكاليات ، بتبنيها لوجهة نظر تكاملية أكثر دينــاميكية ،

مستوحـــاة من صلب ثقافـــة المجتمع السنيغالى ، وبضمهـــا لاخصائييـــن فى الانثروبولوجيا وعلم النفس الاكلنيكى والاجتماعى. وذلك فى محاولة لاجمع بين ما هو منهجى وعـــام وبين ما هـــو متبايـــن وخـــاص .

واذا كان المغرب قد ظل بعيدا عن مثل هذه المحـــاولات التى لا تخلو من جانب ايجـــابى وفعال . فاننا نعود لنتساءل عن مدلول ما يسمى بالامـــراض العقلية والمريض عقليا داخل المجتمع المغربى ، وعن الدور الذى تقوم به مستشفيات الامراض العقليه بالمغـــرب فى شكلهـــا الحالـــى .

ان اول ما يتبـــادر الى الذهن ــ ومن خلال ما سبق ذكره ــ هو هذا التعارض الحاصل فى هذا المجال ، بين الوهم والحقيقة لما يسمى بالامراض العقلية فى مفهومها ، وتصنيفاتها وتشخيصاتها وعلاجها من خلال وجهة نظر الطب العقلى ، وداخل مستشفيات الامراض العقلية التى عملت ومنذ البداية على اقحـــام ما يسمى بالمريض عقليا داخل دوامـــة عقيمة من التصنيفات والتشخيصات المرضية الشبه العلميـــة Pseudo-scientifiques ، أصبح من المتعذر غالبا تجاوزهـــا اجتماعيا ، وازالـــة آثارها النفسية والاجتماعيه على الشخـــص المعالـــج .

ان ملاحظة ولو عابرة للواقـــع المعاش داخل المجتمـــع المغربى ، يجعلنا نـــدرك بان مستشفيات الامراض العقلية قـــد عملت ــ والى حد الآن ــ فى انفصام تام مع ما هو سائد داخـــل المجتمع من تمثلات ومعتقدات حول طبيعة ما يسمى بالامـــراض العقلية ومسبباتها وعلاجها . فمن اعتراف ضمنى وتقبل اجتماعى لما يسمى عـــادة «بالمجنـــون» بمختلف أصنافه والقابه ، الـــى رفض كلى وجماعى «للمريض عقليا» وذلك لما أصبحت تعكســـه صورة «المريض عقليا» من تمثلات سلبية مرتبطة أساسا بمفهوم

((المرض)) La maladie في بعده العضوي . خلافا لذلك التمثل والعــلاج التقليــدي لهــذه الاضطرابــات الذي يظل ــ رغــم ما يمكن ان يقــال عنه ــ في بعــده الميتولوجي ، وميكانيزماته وتمثلاته لطبيعــة هذه الاضطرابات ومسبباتها اكثر قــدرة على حل صراعات الفــرد ومعاناته ، وادماجه من جديد داخــــل المجتمــع بعيدا عن كل تاثيــم او تذنيب .

لقد عملت مستشفيات الامراض العقلية وتحت مسحــــة علمية على خلــق تمثلات جديدة ، وتجريد المواطن المغربي ، في معاناتــه واضطراباته النفسية والاجتماعيه ، من هويته الاجتماعية والثقافيــة ، واجباره على تبني ((هويــة Identité)) اجتماعية جديدة (كمريض عقلي) ، ساهمت في تعميق الهوة بينــه وبيــن الآخرين ، وبتهميشه اجتماعيا ، مع ما لهذا التهميش في حد ذاته من انعكاسات واضــرار نفسية واجتماعية سلبية على الفــرد المعالــج نفســه .

وبالتالي تكون مستشفيات الامراض العقلية في تناقض تــام مع وظيفتهــا الاجتماعية التي تبنتها حاليــا والمتمثلة في عــلاج المواطــن المغربي وادماجه اجتماعيــا .

ان المشكل في نظرنا ليس مشكلا تقنيا وظيفيا يكمن في قلة المستشفيــات وغياب الاطر الطبية ، بقدر ما هو مشكل جوهري يكمن في ضرورة تجــاوز وتغيير طبيعة المنهج والمنظور الـــذي من خلاله يتم دراسة وتحديد ما يسمى بالامراض العقليــــة وعلاجها ، واعادة النظر في مدى صلاحيــة هذه المستشفيــات وتوافقها مع طبيعة وثقافــة المجتمــع المغربي وتمثلاتــه .

عمران عبد الرحيم ــ التويجري محمد

باريــس ــ مارس ــ 1980

المصـــــادر :

1 - Cooper. D. : «Psychiatrie et Anti Psychiatrie» Editions du seuil Coll. points - 1970.

2 - Locascio A. et Mellina S. : «Le diagnostic est-il une delegation qui aliènese ? » In perspectives psychiatriques 1979 - IV n° 73 p. 311 - 315.

3 - El Khayat. G. «Reflexions à propos de l'exercice de la psychiatrie au Maroc : Les transferts des sciences et les techniques occidentales en milieu arabo-musulman» Mémoire de psychiatrie — Université Paris VI 1979.

4 - Moscovici S. : «Introduction à la psychologie sociale» - Edition LAROUSSE - Université - Paris 1972 Tome I et II.

5 - «Nosographie psychiatrique et contexte politique» VII congrés mondiale de psychiatrie sociale - In perspectives psychiatriques Revue du Groupe d'études de psychiatrie, psychologie et sciences sociales - 1979 IV n° 73.

6 - Cillignon R. Psychopathologie Africaine : Bulletin de la société de psychopathologie et l'hygiène mentale de DAKAR 1978 Vol : XIV n° 2 - 3.

حول سوسيولوجية الثقافة الشعبية

مداخلــة منهجيــة

احمــد سعــود

ـــ مقدمـــة حول المنهج والايديولوجيـــا

تحتل اهمية المنهج في العلـــوم الانسانية مكانة مركزيـــة اجمالا ، وفي التـــراث الشعبي خاصـــة .

فلم يعد الاختلاف والمغايـــرة ، على مستوى النتائج وانما اصبحت على مستوى ، المناهج ، حيث ان النتائج تشكـــــل الحصيلة المنطقيـــة للمنهـــج .

ومن هنا انصب الاهتمام على المناهج باعتبارها تشكـــل الخطاطة النظرية والمحرك الاساسى لولوج تلك النتائـــج .

اذن فصحة النتائج او خطأها عائد في الوقت الراهن والى حد يستهان به الى صحة او خطأ المناهج المتبعة في التحليل.

الاكيد ان المنهج يشكل شكلا من اشكـــال الوعى الانسانى، وهذا الوعى يتضمن بالتالى لحظة معرفية ، ولحظة ايديولوجية، هاتان اللحظتـــان يستحيل الفصل بينهما لانهما متداخلتان تداخلا دياليكتيكيـــا . وكثيـــرا ما يلاحظ فى التحليل السوسيولوجـــى ان الذى يلعب دور الهيمنة dominance هو الايديولوجى اكثر من العلمى بالمعنى الذى يحدده التوسير للايديولوجيا والعلم.

تأسيسا على هذا الطرح . فالمنهج الى حدما اختيـــــار ايديولوجـــى اذن ، فما هو المنهج الذى يمكنـــه ان يساعدنا على تمثـــل خطاب discours الثقافة الشعبية تمثلا علميا ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال ، لابد من القيام باستعراض سريع لأهم المناهج المتواجدة فى هذا المجـــال والتى يمكـــــن تلخيصهـــا كالتالـــى .

ألف / المنهج التاريخى — الاجتماعى ، وهو الذى يتمحور حول مفاهيم كالصراع الطبقى ... ولكن سلبيته تبقى فى كونه يركز على «سوسيولوجية المضمون دون سوسيولوجية الشكل» فى الوقت الذى يغيـــب عنه ان المعنى بيـــن هـــذه الثنائيـــة الواضحـــة» (1) .

بـــاء / المنهج الانتربولوجى / لقد لعب المنهـــــــج الانتربولوجى ، دورا رئيسيـــا فى تزويد الادارة الاستعمارية فى شخص الليوطى بالمعلومات عن طبيعة التشكيلات الاجتماعيـــة للمغرب الما قبل راسمالى ، انها كانت بمثابة الجنرال الفكـــرى الذى مهد الهيمنة الاستعمارية ، حيث عملت على «عرقلة نمـــو الشعوب وذلك بخلق آليـــة الحصار تتجلى فى تشويه الثقافـــة الشعبية والتقاليـــد النمونجية والعادات الهادفة والعمل علـــى طمسهـــا» (2) .

ولكن اذا ما فصلنا الانتربولوجيا عن الفضاء السياسى الذى تعمل فيه وباستثناء كذلك أجتهادات كلود ليفى ستراوس فى انتربولوجيته الاجتماعية ـ فاننا لا زلنا نلحظ تضمنها لبعض مواطن السلب (كالاعتقاد بوحدة العقل البشرى ، ووحدة قوانين تطور الثقافة البشرية ووجود (رواسب) ثقافية فى حياة الشعوب المتحضرة وفى ابداعاتها ، كل ذلك يبدو كمبدأ عام جدا ، مجرد عن الاسس المادية ... ويرى الماركسيون فى نقدهم لهذه النظرية انه لا يمكن تفسير معظم الملاحظات المثمرة التى قدمها ممثلو المدرسة الانتربولوجية ، بوضوح الا حين تقوم على أساس ثابت من نظرية ماركس المادية عن التكوينات الاجتماعية ـ الاقتصادية)) (3) .

جيم / المنهج السوسيولوجى الاختبارى / وهو الذى يعتمد على تقنيات (كالاستمارة والمقابلة والمونوغرافيا . والاحصاء ، والسوسيوميترى ... الخ . هذه الادوات لها قاسم مشترك هو التحقيق الفعلى للنموذج الدوكايمى ، اى التعامل مع الظواهر الاجتماعية من الخارج (كأشياء مماثلة لاشياء العلوم الفيزيائية)) ، (4) مع العلم أن دور كايم لم يحترم ذلك المبدأ الاساسى فى سوسيولوجيته كما وضح ذلك غوريفيتش

ان الاستمارة التى يتفق عدد كبير من الباحثين على اهميتها فى استخلاص المعلومات الضرورية فى البحث وفى طابعها ((الموضوعى)) !! المترتب عن الصرامة والدقة فى الاسئلة ، فانها لا تستطيع وحدها ان تمدنا بكل ذلك فى المجتمعات ((المحيطية)) لكونها لم تتخل عن حمولاتها الايديولوجية ، وبالتالى ، فاذا كان ممكنا استعمالها فى المركز الامبريالى ، فذلك راجع بالاساس ، الى كون هذه المجتمعات عرفت تحولات ديموقراطية وليبيرالية اعطت للفرد حريته فى التعبير .

هذه الامكانية غير واردة ، فى المجتمعات المحيطية التـى لم تعـرف اى نـوع من تلك التحولات السالفة الذكر ، كل ما هناك هو تراكـم القمـع ، الشىء الذى ادى الى تشكيل انسان فـج ، مقهور ، يتصور الاستمارة وكأنها مماثلة لورقة ادارية .

دال / البنيويـة الشكلانية / اتـت هذه الاخيرة ، كـرد فعل ضد التيـار التاريخى وينصب اهتمامها فقط على ما هـو سانكرونيكى فى النص اى : من حيـث هو مجموعة من العناصر المترابطـة علائقيـا ..

ـ انهـا تشدد على عنصر العلاقة عوض الانسـان ، اعتقادا منها أنهـا وصلت الى الموضوعية !!

ـ انها تضـرب جدلية التاريخ ، وتدرس الخطـاب معزولا عن بعـده الدياكرونـى / التاريخى .

ـ انها الغت الذات الفاعلة فى التاريخ ، اى الطبقـات الاجتماعيـة معوضـة اياهـا بجدلية البنيـات .

ـ انها الغت الانسان وهذا ما نجـده عند فوكو حيـث يقول فى كتابه «الكلمـات والاشيـاء» اذ يرى انه اذا طبقنـا على الانسـان علم آثار المعرفـة «ستتضح لنا حداثته ونهايته القريبـة ... فالانسـان سوف يـزول» .

اننا بالفعل فى حاجة الى اركيولوجية للثقافة العربيـة ، دون ان نسقط فى ماذهب اليه فوكـو من اعتبار ان الايبستيمى هو مقـول فى الافراد بل ضد كل هذا ، فالابستيمى يجب ان يكون مماثلا للنظـرة الى العالم التى يقول بها غولدمان هـذه النظرة فى التحليل النهائى تناظر بنيويـا تشكيلات اجتماعيـة محـددة تاريخيـا .

ان البنيويــة فى مظهرها الشكلانى بدأت تتسرب الــى المؤسسات الثقافية ، عن وعى او بــدون وعى ، ان هــذه البنيويــة «تعبير عن هيمنــة النظام التيكنوقراطى فى المجتمــع الرأسمالى ، وهى بذلك تشكل ايديولوجية التوازن والحفاظ على الواقــع كما هو عليه» .

كخلاصة نقول ، ان هذه المناهج الاربعــة غير كافيــة واحيانا عاجــزة عن تمثل خطاب التراث الشعبى وعن اعطائه المكانــة التــى يستحقها :

فالاول يركــز على سوسيولوجية المضمون ، والثانــى لا زال سجين نفض المفاهيم الغير محددة اجرائيــا ، والثالــث يشدد على ما هو يومــى واختبــارى والاخير يعالج الخطاب من حيث آليــته الداخلية (السانكرونى) .

وكأنه وحــدة مغلقة خارجة عن التاريخ وفوق الطبقــات الاجتماعيــة ، انه الثابت المثالى الذى يعبــر عن نفسه حاليا وراء اقنعــة تدعى الموضوعية العلميــة التى بين زيفها اخيرا الفكــر الاختلافى . تأسيسا على تلك الانتقادات نطــــرح السوسيولوجيا التكوينية بشكلها الغولدمانى كبديــل مقتــرح قادر ، فى تصورنا ، على تمثل الخطاب الشعبى .

هذا المنهج الذى تبنــاه اتحاد كتاب المغرب ، وبدانا نجسد له صدى فى كتابــات بعض النقــاد المغاربة (5). وهو صدى ضئيــل بطبيعــة الحال وكما سيبين ذلك الجدول فى الاخيــر ان هذا المنهج ينطلــق من الافتراض التالى .

«كل السلوك الانسانى ، هو محاولــة لاعطاء جواب دال لوضعية خاصة ، ويميــل بهذا الى خلق توازن بين الــذات والعالــم الخارجــى» (6) .

«ان الوقائـــع الانسانية تتقدم كسياقـــات processus ذات وجهين : تخريب البنيات القديمة وبنينة الكليات الجديـــده القادرة على خلق توازنـــات تستجيب لضروريات المجموعـــــة الاجتماعية التى بلورتهـــا» (7) .

كما ان هذه البنيوية التكوينيـــة تنطلق من الفرضية التالية وهى ان المبـــدع الحقيقى هو الذات المتعاليـــة اى الطبقـــات الاجتماعية ، فهى ترى كما يـرى Adormo بان «وراء كـــل انا نحن متكلم

وهكذا ، فاننا حينما نقوم بمعالجة التراث الشعبـــى من حيث هو خطاب ، فاننا نعتبره كنتاج اجتماعى بقدرما هو ابداع فردى ، ذلك لان السوسيولوجيا الغولدمانية تتميز بكونها تقـــوم على التاكيد المبدئى على ان الفـــرد الواحد فى الابـــداع ليـــس معنيا وحده ، بل ان العمـــل الفنى هو تعبير عن الوعى الجماعى الذى يشـــارك فى الفنان بشدة اكبر من مشاركة المجموع .

أ ـــ البنيـــة الدالـــة والتوافق البنيـــوى :

ضد كل تلك الدراسات التى كانت تحـــاول البحث عـــن العلاقة القائمـــة بين مضمون الوعى الجماعى ومضمـــــون العمـــل الفنـــى .

فاننا ضمن اطار المنهـــج البنيوى التكوينى ، سينصـــب اهتمامنا على العلاقة القائمة بين البنى الذهنية التى تكون الوعى الجماعـــى والبنى الاستيتكية التى تكون خطاب التراث الشعبى .

فمفهوم البنيـــة الدالة كمفهوم اجرائى ، سيمكننا .

اولا : من فهم «خطاب» التراث الشعبى من حيـــــــث طبيعتـــه ودلالتـــه .

ثانيـــا : من الحكم على قيمته الادبيـــة والجمالية .

وهكذا فان الادبى والجمالى لا يمكن العثور عليهما الا فى الوقت الذى يحمل فيه خطاب التراث الشعبى «نظرة عن العالم» vision du monde حيث تمكننا هذه الاخيرة من تفسير الخطاب تفسيــرا «علميــا» .

بهذا التحديد فأول شىء سنلتزم به اثر تصدينا للخطـــاب الشعبى هو الكشف عن بنيـــة لها امكانيـــة الدلالة على الخطاب فى كليتـــه دون أن نضيف الى الخطاب اى بعد دياكرونـــــى / تاريخـــى .

2 ـــ الوعـــى الممكـــــن :

ان مفهوم الوعى الممكن «هو الاكتشاف الاكثر خصبا لماركس والذى يشكل فى ذات الوقت مركز الفكر الماركسى ، وهو احـــد المفاهيم الاجرائية الاساسية لدراسة المجتمع» (8) وهو كذلـــك احد المفاهيم التى تشكل «الاداة الاساسية للفكر العلمى فى العلوم الانسانية ، ففى معالجتنا للتراث الشعبى ، سوف لن نبحث عن ما يفكر فيه الشعب وانما سنبحث عن الوعى الممكن للشعب.

فى هذا الاطـــار يقول ماركس «ان الامر يتعلق بمعرفة ما يفكـــر فيه هذا البروليتارى او ذاك ، او البروليتاريا كلها ولكن الامر يتعلق بما هو الوعى الطبقى للبروليتاريا ؟ انـــه الفصل الكبير بين الوعى الواقعى والوعى الممكن» (9) .

ان الاعتمـــاد حقيقة على ما هو يومى سيشوه كما يقـــول جورج لوكاتـــش التناقض الرئيســـى .

ان الابحاث السوسيولوجية التى تعتمد اساسا على الوعى الواقعى كمفـــهوم اساسى هى ابحاث تنتمى الى السوسيولوجية

الوضعية اما السوسيولوجيا الماركسية فانها «تعتبر ان المفهوم الاساسي ليس هو الوعي الواقعي بل هو الوعي الممكن الذي يمكننا من فهم الوعي الواقعي» (10) .

ان الوعي الطبقي يشكل وعي طبقة ما في فترة ما ، اما الوعي الممكن فهو اكبر وعي تحصل عليه طبقة ما لمعرفة واقعها دون ان يكون هناك اي تعارض اقتصادي او اجتماعي بين افراد هذه الطبقة .

الفهم والتفسير :

ان الفهم كما يؤكد على ذلك غولدمان «هو طريقة ذهنية تمكن من الوصف الدقيق قدر الامكان لبنية دالة» .

بمعنى ، محاولة الكشف عن بنية محايثة للخطاب الشعبي تتمتع بامكانية التعبير عن النص في كليته .

ان هذا المستوى الاول من القراءة ، الفهم هو ما يمكن ان نعبر عنه بالاصطلاح البنيوي الشكلاني «السانكروني» .

أما المستوى الثاني اي الدياكروني أو التفسير ، فهو محاولة ربط هذه البنية الدالة المحايثة ببنية شاملة خارجية الشيء الذي يمكننا من تفسير الخطاب الشعبي تفسيرا علميا .

ملاحظة منهجية لا بد منها :

اننا في الوقت الذي نعلن فيه تعاملنا مع البنيوية التكوينية فاننا لا نعني بذلك التعامل الآلي والحرفي للمنهج البنيوي التكويني بل انه تعامل يخضع لعملية تعديل المنهج ، فالمنهج اساسا يصوغ الموضوع ، والموضوع بدوره يؤثر في المنهج .

ان استحضارنا لغولدمان داخل اشكاليتنا سيأخذ معنى

جديدا لا علاقة له بالمعنى الذى يعطيه غولدمان ضمن اشكاليــة الواقع الغربى اننا حقيقة حينما نقــوم بقراءة غولدمان ، فــان هذه القراءة مشروطة حضاريا وتاريخيا . فى هذا المعنى يقــول الدكتور عابد الجابــرى : «ان تحديد القراءة ومكانها واللحظــة الحضارية التى تمت فيها من الاهمية بمكــان ... آنها المعطيات التى تتحكم فى القــراءة فتحمل القارىء على قــراءة امور معينة بكيفيــة معينــة» (11) .

وعلى سبيل المثال لا الحصر : فان قــراءة العرب لارسطو اعطتنا ارسطو عربيا لا علاقة له بارسطو اليونانــى .

وكذلك قراءة لينين لماركس ، انطلاقا من الواقع السوفياتى اعطتنا الماركسية اللينينيــة .

وقــراءة المسرح العربى لمسرح بريشت الالمانى اعطتنــا بريشت عربيا وليس المانيــا .

واخيرا ، فان قــراءة وتطبيق الناقورى لغولدمان ضمــن اطار اشكاليــة مغربية ، اضطر فيها الى الالتــزام بالجانــب السوسيولوجى للبنيويــة التكوينية «اكثر من البحث عن البنيات الدالــة سواء من خلال السلوك او حتى من خلال الفعل او من خــلال الوعى داخل النــص» (12) .

باختصار نقول : ان المنهــج فى الوقت الذى يبتعد فيه عن ارضيته الفلسفية والميتافزيقيــة وعن اشكاليته المحورية ليتصــل بارضية واشكاليــة جديدة فانه يتنــازل عن كثير من خصائصه وذلك بناء على ما يطرحه واقــع وآليــات الاشكالية الجديدة ، من تعديــل وتصويب للمنهج ليتلاءم وخصوصية هذه الاشكالية الجديــدة .

ونحن فى محاولة تطبيقنا لهذا المنهج ، سوف لن نخرج عن هذا التاثيــر الموضح سلفــا .

نشير فى الاخير الى اهم كتابات لوسيان غولدمان مــع بيبليوغرافيا لأهم الترجمات العربيه عنه والمقالات التركيبية عن اهم افكار سوسيولوجية .

من خلال هذه البيبليوغرافيا والتطبيقات العربية للوسيــان غولدمان نستخلص ملاحظة أساسية ، وهى ان غولدمان لازال غير معروف عند القراء العرب عكس جورج لوكاتش الذى نشهد له فى السوق العربية ترجمات لاهم كتبه وهذه الملاحظة تبيــن الى اى حد لازلنا نقف عند حدود كتابــات لوكاتش فى الوقت الذى حقق فيه الفكر الغربى شبه قطيعة مع لوسيان غولدمان .

* La creation culturelle dans la societé moderne
* De Dien caché
* Intreduction à la philosophie de Kart
* Marxisme et science humaine
* Racine
* Recherches dialectiques
* Situation de la critique racinienne
* Structures mentales et creation culturelle
* Sciences humaines et philosophie
* Pour une sociologie du roman

عنوان المقال	المترجم	المجلة
علم الاجتماع الادبى نظامه الاساسى ومشاكله المنهجية .	مصطفى المسناوى	الثقافة الجديدة العدد 11/10 السنه 1978
الفلسفة وعلم الاجتماع فى آثار ماركس الشاب	محمد البكرى	الثقافة الجديدة ـ العدد : 1 السنة 1974
سوسيولوجية الادب عند لوسيان غولدمان.	الاستاذ عبد السلام بن عبد العالى . (مقال تركيبى)	اقلام المغربية ـ العدد : 4 ـ السنة 1977
تأملات فى فكر هربرت ماركوز	جورج طرابشى	دراسات عربية العدد 9/8 السنة 1977
سوسيولوجية الاداب	جميل شجيب	مواقف ـ العدد : 33 ـ السنة 1977
لوسيان غولدمان بعض آرائه فى الاجتماع والسياسة	حلمى سمراوى	دراسات عربية ـ العدد : 10 ـ سنة 79

ويمكن حصر التطبيق العربى لغولدمان عند الكتاب الاتية اسماءهم محمد بنيس على الشعر العربى المعاصر .

ادريس الناقورى ((المصطلح المشترك)) .

محمد رشيد ثابت ((البنية القصصية ومدلولها الاجتماعى)) ليبيا ـ تونس 1975 .

مصطفى المسناوى فى نقده لكتاب ((طريق الاستقلال الفلسفى)).

غالى شكرى فى أطروحته « النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث » .

بعض التطبيقات التونسية على أحب المذرى وكذلك بعض المحاولات السورية فى دراسة الرواية .

هوامش لها صلة بالموضوع :

(*) ان هذه المقدمة النظرية لم يتم بعد تكييفها مع موضوع البحث انصب اهتمامنا فى الاول على تحديد جهازنا المفاهيمى المستمد كلية من غولدمان .

(1) Samer Nair/Forme et Sujet dans la création culturelle in le sturcturalisme génétique Ed. mediation p. 49.

(2) — قراءة ابستيمولوجية لمفهوم الانتربونوجيا / المحرر الثقافى 23 دجنبر 1979

(3) الدكتور محمد الجوهرى / علم الفولكلور / دراسة فى الانتروبولوجيا الثقافية ط. 2 دار المعارف .

(4) L.G. Sciences humaines et philosophie in mediation p. 47

(5) — يمكن مراجعة فى هذا الاطار كتاب ادريس الناقورى « المصطلح المشترك » وكذلك أطروحة محمد بنيس التى طبق فيها المنهج البنيوى التكوينى على الشعر المغربى المعاصر وكذلك اطروحة الدكتور غالى شكرى « النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث » بيروت . دار الطليعة 1978 .

(6) L.G. Pour une sociologie du roman. p.338

(7) Ibid : même page.

(8) L.G. la création culturelle dans la société moderne in mediation

(9) L.G. Sciences humaines et philosophie (in) mediation p. 124

(10) L.G. la création culturelle dans la société moderne p. 8

(11) — الجابرى فى قراءته للعرابى : مجلة اقلام السنة 2/ع : 1

(12) — مجلة الثقافة الجديدة / العدد 9 السنة 1978 ص 20 .

التلميذ المغربي ودرس التاريخ

محمد الزعيمي •

عندما تعود بي الذاكرة الى المضي ، ايام كنت تلميذا بالتعليم الابتدائي ثم بالتعليم الثانوي اذكر ان الانطباع الذي كان يسود آنذاك وسط التلاميذ حول مادة التاريخ التي نتلقاها ، هو ان هذه المادة هي مادة حفظ، وانه يكفي ان يسرد التلميذ الاحداث التاريخية التي كتبها في دفتره ليعتبر من التلاميذ المجتهدين والناجحين في هذه المادة • ومن خلال ممارستي كاستاذ لهذه المادة وكمكلف بالمراقبة التربوية في هذا المجل لاحظت ان هذا الانطباع هو السائد ايضا لدى التلاميذ بل وحتى لدى الاوساط العائلية حينما تستعرض المواد الدراسية وتستعرض معها خصائصها بمناسبة الحديث عن الامتحانات الرسمية وبالخصوص امتحان الباكالوريا •

واذا أراد الباحث أن يتعرف على هذا الانطباع بشيء من الوضوح والتفصيل وان يحاور التلاميذ في هذا الموضوع فيسألهم مثلا عن الرتبة التي يعطون لمادة التاريخ بين المواد الاخرى ،

فسوف نجد ان معظم هؤلاء التلاميذ يضعون هذه المادة غالبا فى الرتب المتأخرة ، وعندما تسالهم عن فائدة التاريخ فالكثير يرى ان هذه الفائدة مقصورة على معرفة الماضى فقط ، وحيث ان الماضى لا يثير اهتمام التلاميذ الا فى بعض المناسبات ، فهم يعتبرون ان كثيرا من الدروس التاريخية فيه مضيعة للوقت، ويبعث على الملل والضجر ، فهناك أحداث تتعلق بالتاريخ الاوربى فى العصور الوسطى مثلا ، وأخرى تتعلق بحروب فى العصور القديمة كالحرب البونيكية وهناك دروس أخرى تتضمن تفاصيل كثيرة عن التاريخ الاسلامى أو تاريخ المغرب لا يجد التلاميذ اية لــذة فى الاقبــال عليها ولا تثير أى اهتمام لديهم ، ولذلك فهم يكتفون بحفظ الملخصات التى تعطاهم عنها مادام المطلوب منهم هو أن يردوا البضــاعة الى صاحبها يــوم الحســاب •

أما اذا انتقل الباحث الى أستاذ التاريخ نفسه ليتعرف على انطباعه هو عن تدريسه لهذه المادة بالاضافة الى انه مكلف بتدريس الجغرافيا أيضا فسوف نحصل على رأى يعكس تقريبا معظــم آراء الاساتذة الاخرين وهو أن التلاميذ لا يولون اهتماما كبــيرا لهذه المادة لان الظروف المادية غير مساعدة فهو يذكر لك مثلا ان التلاميذ لا يتوفرون كلهم على كتب مدرسية ، وان الثانــوية لا تتوفر على الخرائط الضرورية والكافية والصور والوثــائــق المناسبة ، وعلى القاعات المخصصة لتدريس هذه المادة بالاضافة الى ان استاذ التاريخ يسند اليه تدريس أكثر من مادة واحدة وفى أكثر من فصل واحد ، فهو مكلف فى اغلب الاحيان بثــلاث مستويات على الاقل وبتدريس ثلاث مواد هى التاريخ والجغرافية والتربيــة الــوطنيــة •

أما اذا اتصل الباحث بالسادة المكلفين بالمراقبة التربوية أو كما يسمون عندنا برجال التفتيش فانك تسمع تبريرات اخــرى

لهذه الوضعية تنصب على الاستاذ أكثر مما تنصب على التلاميذ أو الظروف المادية ، فهم يذكرون لك مثلا أن هناك عددا من الاساتذة لا يعرفون كيف يحصرون دروسهم ، وهناك آخرون لا يستغلون الوسائل التى تتوفر عليها ثانويتهم ، ولا يحسنون استغلالها وهناك غيرهم لا يتقنون مادتهم الى غير ذلك .

والواقع أن هذه الوضعية قد تكون نتيجة لكل هذه الاسباب التى يشير اليها التلاميذ والاساتذة والمفتشون ، كما أن هنالك أسبابا أخرى بدون شك من ورائها ، ولكن هل يكفى أن نوفر كل هذه الشروط المنعدمة لنستطيع تسوية هذه الوضعية ؟ هل يكفى أن يتوفر الاستاذ على الصور والخرائط ليقضى على ملل التلميذ ؟ هل يكفى أن يعطى للاستاذ مستوى واحد لتكون دروسه جذابة وتثير اهتمام التلاميذ ؟ الحقيقة أن القضية معقدة أكثر مما يتصور المرء ، فهناك عدة مستويات يجب أن تطرح فيها هذه المشكلة : مستوى المادة نفسها ومستوى الطرق والوسائل التى نبلغ بها هذه المادة واخيرا مستوى المراقبة والتقييم .

ولعله ليس من الضرورى هنا أن نشير الى التطورات التى مر منها علم التاريخ كعلم ظهر للوجود بصفة مستقلة ، ذلك انه اذا ما حاول المؤرخون فى القرن التاسع عشر أن يطبعوا هذه المادة بالطابع العلمى ويجلعوا فيها مادة تخضع لشروط ومقاييس علمية ، فانه فى مطلع القرن العشرين تزعزع مركز هذه المادة عندما ظهرت علوم انسانية اخرى كالاجتماع او العلوم السياسية واخذت تطغى على التاريخ وتجعل منه مادة تابعة وليست رئيسية كما كانت سابقا وبطبيعة الحال فان وضعا من هذا النوع سيكون له انعكاس فى المجال البيداغوجى ، ذلك أنه اذا كان تدريس التاريخ فى السابق يسعى الى اعطاء نظرة شمولية عن حياة الانسان فى مختلف الازمان والعصور ، فان العلوم الاجتماعية

الاخرى التى ظهرت ازالت للتاريخ عددا من الوظائف التى كان يقـــوم بهـــا .

وهكذا يمكن ان نقول ان هذه الازمة التى يعانيها تدريس التاريخ فى بلادنا وحتى خارج بلادنا يرجع سببها اولا الى طبيعة المادة والى الغموض الذى يكتنفها بعد ان ظهرت علوم اجتماعية أخرى منافسة . وقد حاول عدد من الباحثين ان يعطوا للمــادة التاريخية تعريفا دقيقا ودورا واضحا حتى لا يكون هناك تداخل بينها وبين المواد الاجتماعية الاخرى وتوصل البعض الى أن مادة التاريخ يجب أن تهتم بالزمن أو بفعل الزمن على الاشياء كما يقول روجى كوزينى ، ومعنى ذلك أن العمل سينصب فقط على معرفة كيف وقعت الاحداث وتطورت وكيف استطاع المؤرخ الوصـــول الى هذه « الحقائق » التاريخية وبعبارة أخرى فان باحث التاريخ بقدر ما يهمه معرفة الاحداث يهمه أيضا أن يعرف كيف توصل المؤرخ الى صيغة تركيب عم فيه سير الاحداث وتطورهـــا . وبطبيعة الحال فان هذه الوقائع التاريخية تتناول جوانب الحياة كلها من سياسة واقتصادية واجتماعية وعسكرية .. الخ والمؤرخ هنا ليس من وظيفته أن يعطينا قواعد أو قوانين تنتظم حولهـــا الكيان الكلى للحدث أو الاحداث المجتمعية ، فتبعث القوة فى الترابط ومدارجها ، وطرائق عملها ، وشـــروط تصاعدهـــا فى دورة أن هذه الجوانب الحياتية ، ولكن عليه فقط أن يشرح لنا — اطار الفرضيات لاغير — كيف وقعت هذه الاحـــداث المتعلقـــة بهـــذه الجوانب ، وبعبارة أخرى أن المؤرخ يتمتع فى هذه الحالة بمـــا يسمى بالحس التاريخى أو البعد الرابع كما يقـــول البعض .

واذا ما فرضنا اننا توصلنا الى حل فيمـــا يخص المستوى الاول الذى هو مستوى المادة ، فانه يبقى علينا ايضا أن نجـــد الحلول الضرورية بالنسبة للمستوى الثانى الذى هو مستـــوى

الطرق والوسائل البيداغوجية لتدريس هذه المادة . وهنا لابد من أن ندخل فى عين الاعتبار النتائج التى توصلت اليها علوم التربية والدراسات التى أنجزها البعض فى هذا المجال ، ولعل أول ما يطرح فى هذا المستوى هو قضية الاهداف ، ذلك أنه قبل معالجة الطرق والوسائل ، لابد من التعرف على الاهداف المرسومة والمحددة لتدريس هذه المادة ومن المعروف أن أهداف تدريس أية مادة تلتقى كلها فى النهاية لتكون الاهداف العامة للتربية ، واذا كنا نرتكز فى تحديد هذه الاهداف على فلسفة المجتمع من جهة وقدرات التلميذ وطبيعة المادة من جهة أخرى ، فاننا سنكون مضطرين الى ان نغير من اهداف تدريس التاريخ والتى كانت تسود منذ بداية القرن العشرين على الاقل لعله من المناسب أن نرجع الى اهداف تدريس هذه المادة (التعليمات الرسمية سنة 1976) لنجد أن من بين هذه الاهداف : « تعريف التلميذ بماضى المجموعة البشرية التى ينتمى اليها اطلاعه على تراثها وتوعيته بالدور الذى لعبته فى تقدم الحضارة البشرية ، ومعرفة الماضى ضرورية لفهم معطيات الحاضر وللمساهمة فى بناء المستقبل » وهدف من هذا النوع يقتضى الاطلاع الاخبار وهذا يعنى ان التلميذ سيكون فى حالة استقبال ، وحيث أننا نعيش اليوم فى عصر تكثر فيه المعلومات والاخبار وتزداد يوما عن يوم ، فانه أصبح من الصعب على الفرد الذى نعده للحياة أن يستوعب كل المعارف التى تدخل فى اطار هذا الاعداد ، ذلك أننا اذا أردنا ان نسير فى هذا الاتجاه فسوف نقضى وقتا طويلا قبل أن يصل الى هذا الهدف وربما لن يصل اليه ، ولذلك فانه من اللائق فى هذه الحالة أن يقتصر فى مهمة الاعداد على الاخبار بالمعلومات « الضرورية » على أن يشفع ذلك باعطاء التلميذ الامكانات اللازمة لاكتساب منهجية فى العمل يستطيع بواسطتها استقاء

الاخبار والمعلومات وتمحيصها والتمييز فيها بين مـــا هو أساسى وما هو ثانـــوى ٠

ولعل مادة التاريخ لا تفلت من هذا الاختيار ان أريـــد لهـــا النجاح فى التدريب ، فبرامج التاريخ المسطرة فى التعليمات الرسمية تضم عددا لا يستهان به من المواضيع الغنية بكثير من الاحداث التاريخية ، وهى احداث تزداد وتكثر كلما استطاع الباحثون ان يزيحوا بعض الغموض عن فترة تاريخية معينة كما انهـــا تزداد أيضا بمرور الزمن ٠ فالمطلوب فى هذه الحالة اذن هو الاختيـــار والاقتصار على الخطوط العريضة للمراحل التاريخية المدروسة ٠

وقضية الاختيار هذه تطرح لنا مشاكل متعددة ، ذلك أنه يلزمنا أن نتوفر على معايير دقيقة ومقبولة لممارسة هذا الاختيار، والمعايير التى قد يتخذها البعض لا تجد قبولا لدى البعض الاخر ومن ثم يكون نوع من الغموض فى تدريس المادة ، فما هو مهم فى التاريخ مسألة نسبية ، وعليه فان هذا الاختيار يبقى دائمـــا رهينا بالظرفية التى حـــدد فيهـــا ٠

على أن علوم التربية اليوم يستطيع أن تزودهـــا ببعـــض العناصر الضرورية والمساعدة على حل هذا المشكل من بعـــض الجانب ذلك أنه يجب عند وضع البرامج مراعاة طرف مهم فى العملية التربوية وهو التلميذ ، فهل التلميذ الذى نتوجه اليه بهذه الدروس يجد فيها اثارة لاهتمامه ؟ وهل له القدرة على استيعاب ما يقدم له ؟ او بعبارة اخرى يستطيع ادراك الاحداث المعروضة له وهى اطارها الزمنى ؟ وهنا بطبيعة الحال سنلتقى فى البحث أجوبة لهذه التساؤلات مع التيار التربوى الذى ظهر منذ الخمسينات والذى يركز فيه عند عملية التعليم على استغلال البنية قصـــد اثارة اهتمام التلميذ كما نلتقى مع الاهتمامات التى شغلت عددا من علماء نفس الطفل وهم يبحثون فى ادراكاته لعدد من المفاهيم

من بينها مفهوم الزمن . وقد اراد بعض الباحثين تطبيق بعض النتائج المتوصل اليها في هذا المجال على درس التاريخ ؟ حتى يخلصوا هذه المادة من المشاكل البيداغوجية التي تعترضها. ذلك ان طفلا في السنة العاشرة او الحادية عشرة يستهل دراسة التاريخ في التعليم الثانوي بالتعرف على أحداث ترجع من الناحية التكرنولوجية الى آلاف السنين وتعالج قضايا شعوب بعيدة كل البعد عن بيئة التلميذ تجعل هذا الاخير لا يزيد في عملية تعلمه عن أن يحفظ الاسماء والارقام ولمدة محدودة من الزمن ، مادام لا يجد اية فائدة في ذلك . وعليه فان وضع البرامج يجب أن ينطلق من هذه القاعدة التي هي اثارة الاهتمام من جهة والقدرات التي يتوفر عليها التلميذ من جهة أخرى وهذا يفرض بطبيعة الحال اعادة النظر في البرامج الحالية الموجودة في التعليم الثانوي والمخصصة لتدريس التاريخ سواء حيث المضمون أو من حيث التسلسل الزمني .

واذا اطلعنا على بقية الاهداف المسطرة فسوف نجد أنها لا تختلف تقريبا عن مثيلاتها في البلدان الاخرى سواء في أوربا أو افريقيا أو آسيا ، فهي تجمع ما بين الاخبار والتكوين ولكنها تبقى مع ذلك أهدافا عامة لابد لها من تصنيف وتوضيح حتى يمكن ان نستخرج منها مجموعة الاهداف الخاصة والمميزة بوضوحها من حيث السلوك الذي يجب أن يقوم به الطفل حتى يحكم عليه بانه أدرك او لم يدرك الهدف المنشود . فعندما تنص التعليمات الرسمية مثلا على أن دروس التاريخ والجغرافية « تعتمد على روح الملاحظة والنقد وتنمى عند التلميذ روح الموضوعية والتجدد والبنية» فما هى المقاييس التي يجب على الاستاذ أن يستعملها حتى يستطيع أن يعرف ان هذا التلميذ أو ذاك نميت عنده روح الموضوعية والتجرد والبنية ؟ وبعبارة أخرى

هل ذكر مثل هذه الاهداف وبهذه الصياغة عملية كافية لتحقيق ما هو مسطر فى هذه التعليمات الرسمية ؟

اذن لابد من أن يكون هناك ايضا اعادة النظر فى قضية الاهداف وهنا أيضا لابد من أن نعرف ما يجرى خارج بلادنا فى هذا المجال حتى نستطيع أن نقتبس ما يتلاءم ووضعيتنا ، ولا عيب فى ذلك ما دمنا ننشد المصلحة العامة وتطوير التربية فى بلادنا . ولعله ليس من الضرورى هنا أن أعرض ما جد فى ميدان تحديد الأهداف البيداغوجية بصفة عامة فالمجال لا يسمح لى بذلك وسأكتفى بأن أثير انتباه القارىء الى مقترحات الاستاذ ب. بلوم والاستاذ كليفورد والاستاذ كانى وغيرهم اذا أراد التعمق فى ذلك، ولكن ما يهمنى من خلال كل ذلك هو أن لا نترك هذه الاهداف المسطرة فى التعليمات الرسمية أهدافا عامة وغامضة تحتمل عدة تأويلات وتفسيرات . فما هو المقصود بالتحليل ؟ والاستنتاج والفهم ؟ الخ اذن لا بد من ان نتفق على المدلول الخاص بكل عملية فكرية نتصرف مختلف التصرفات التى يجب ان يقوم بها التلميذ للتدرب على هذه المهارات الفكرية . ومن الطبيعى أن قضية الطرق والوسائل المستعملة يجب أن تكون مرتبطة بقضية تحديد الاهداف فكلما كانت أهدافنا محددة بدقة كلما أمكن لنا ان نتصور الطرق والوسائل التى يجب استعمالها لبلوغ هذه الاهداف ومن الآراء التى اتفق عليها المربون أن الطرق البيداغوجية التى تثير اهتمام التلميذ وتحثه على المشاركة والعمل هى من افضل الطرق التربوية وأنجحها نظرا للمردود الذى تعطيه فى الحقل التربوى وكثيرا ما نرى البعض يهاجم الطرق والوسائل المستعملة فى تدريس التاريخ عندنا ويصفها بالعقم والجمود . فهى فى نظر هؤلاء لا تساعد على اعطاء اية فرصة للتلميذ قصد المشاركة . والواقع ان تطبيق مثل هذه الطرق فى تدريس التاريخ ببلدنا شىء نادر ان لم يكن منعدما، واسباب ذلك

كثيرة ولكنها ترجع بالدرجة الاولى الى عدم وضوح الاهداف وضوحا كافيا كما أشرنا الى ذلك .

ويعتبر الدرس الالقائي هو الشكل التربوي الذي يطغى في دروس التاريخ ببلادنا فالاستاذ باستعماله بصورة دائمة تقريبا يحكم على عدد من القدرات الفكرية عند التلميذ بالجمود ، ومن المعلوم أن الاستاذ يجب أن يكون منشطا لتلاميذته داخل الفصل لا منوما لهم ، وعملية التنشيط هذه تقتضي منه أن ينوع طرق العمل معهم ، وأن لا يكتفي فقط بالقيام بسرد الاحداث وابقاء المعارف عليهم . صحيح أن هناك جانبا أو جوانب من الدرس لابد منها من استعمال الشكل الالقائي ولكن هناك أيضا جوانب أخرى من هذا الدرس يمكن استغلالها في ايقاظ فكر التلميذ وتكوينه ، وهنا لابد من الاشارة الى جعل التلميذ على اتصال مباشر بالوثائق التاريخية حتى يرجع اليها مرة مرة اثناء الدرس ويحاول أن يستنتج منها المعلومات المتعلقة بالموضوع المدروس . ومعلوم أن هناك عددا من الوسائل التعليمية التي أن توفرت في الثانوية ستساعد ولاشك على تنويع النشاط الذي يقوم به التلاميذ لا مجال هنا للحصر والتفصيل فيه .

وهنا لابد من التعرض الى وسيلة هامة من ضمن الوسائل المستعملة في التعليم بصفة عامة ، انها الكتاب المدرسي ، هذه الوسيلة التي تلعب دورا اساسيا في مدارسنا انتوفر عليه التلاميذ، اما فيما يخص الكتب المدرسية الخاصة بالتاريخ فالملاحظ ان ما هو موجود منها لا يساعد على تحقيق الاهداف المرجوة ، ذلك انها لا تميز فيها بين ما هو موجه للاستاذ وما هو موجه للتلاميذ، فالكتاب المدرسي التاريخي موجه للطرفين معا ، وبالتالي فان انعدام تعليمات دقيقة وواضحة حول كيفية استعمال هذا الكتاب تجعل الاساتذة في حيرة ، هذا بالاضافة الى طابع الاسهاب الذي

يطغى على محتوياته الشيء الذى لا يترك للتلميذ مجالاً لاستعمال فكرة من جهة كما يجعل عملية السيطرة على هذا المحتوى صعبة من جهة أخرى .

وعندما ننتقد الكتاب المدرسى التاريخى الموجود حاليا فلاننا نريد ان نساهم فى نفس الوقت فى تحقيق الاهداف المسطرة وخاصة الاهداف التكوينية الفكرية فلا بد فى هذه الحالة من أن نخصص كتابا للاستاذ وآخر للتلميذ ، على أن يكون الكتاب الموجه لهـذا الاخير عبارة عن مجموعة الوثائق المكتوبة والمصورة والمرسومـة يستطيع التلميذ بواسطتها أن يشغل فكره وأن يستقى جزءا من المعرفة بمجهوده الخاص تحت ارشاد أستاذه طبعا . ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الحديث فى هذا الموضوع اذ نستطيع أن نفرد له مقالا خاصا به عندما تسنح الفرصة بذلك ، أما كتاب الاستاذ فسوف يتضمن بطبيعة الحال عددا من المعلومات الاضافية مـع التوجيهات التى يحسن اتباعها من طرف الاساتذة حتى لا يتكون هناك مجال للاختلاف والحيرة فى استعمال الكتاب الموجه للتلميذ .

وأخيرا نصل الى المستوى الثالث الذى هو التقييم ، أى الطريقة التى يتم بها تقييم أعمال التلاميذ فى دروس التاريخ كثيرا تعطى نتائج لا تتفق وواقع التلميذ من جهة كمـا لا تتفق مـع التعليمات الرسمية من جهة اخرى يمكن أن نقول انها تجسيد عملى للفشل الذى منى به تدريس التاريخ ، فاذا كانت غـاية تدريس التاريخ هى فقط أن يردد التلميذ ما سمعه أو قرأه مـن أحداث تاريخية فانه من الافضل حذف هذه المادة من البرنامج مادام ان هذا التلميذ يستطيع أن يفعل ذلك بمفرده وخـارج أوقـات الدراسة ، أما اذا كنا بالفعل نريد أن ننمى قدرات التلميذ الفكرية بصفة ديمقراطية فانه يجب أعادة النظر فى طرق التقييم وذلك بربطها مباشرة مع قضية الاهداف ، اذ لا يمكن تصور صياغـة اهداف بدون تصور وسائل للتقييم .

هذه اذن بعض الخواطر التى سنحت لى بمناسبة التفكير فى هذا الموضوع ولا ادعى انى اعطيت كل الحلول لهذا المشكل ، ولكنى فقط اثرته مع اقتراح بعض الافكار التى يمكن استغلالها فى البحث عن الحلول الجذرية لهذا الوضع التعليمى الموجود فى تدريس التاريخ .

الرباط : محمد الزعيمى

مراجع

فلسفة التاريخ مجلة عالم الفكر

المجلد الخامس العدد الاول 1974.

برنامج الاجتماعيات وزارة التعليم الابتدائى والثانوى 1976

فتجنشتين وفلسفة اللغة

محمد سبيــلا

ا ــ اللغـــــة والفلسفـــة

« اننا نتخلص ، بواسطـــة تحليل اللغـــة ، مـــن عمق الـــروح دون أن نفقـــد روح العمق . اننـــا نستمتع بمزايا النزعة الوضعية ، دون أن نقاسمهـــا فضـــاضتهـــا التجريبية » .

جورغن هابرماس (*)

لــم يبلغ افتتـــان بتقدم العلوم الطبيعية والرياضية فـــى العصر الحديث ، من حيث هى قبل كل شىء منـــاهج دقيقـــة تقود الى نتـــائج مضبوطـــة ، مبلـــغ افتتـــان الاتجـــاهـــات الوضعية والتحليليـــة الســـائدة فى الفكر الفلسفى بـــانجلترا . فالعلـــم الحديث بنتـــائجه الدقيقة ويخطواته المنهجية الصارمة ، وبقابلية قضـــايـــاه للملاحظة المشتركة ، وللتواصل ، وللاختبار ،

قد اصبح نموذجا لكل معرفة دقيقة . وقد أخذ هذا النموذج يمارس اكبر الاغراء على العديد من المعارف والعلوم ، وبخاصة فى ميدان الدراسات الانسانية والاجتماعية ، اذ اخذت هذه هذه العلوم تتجه بالتدريج تحت وطأة هذا الاغراء نحو التشبه بمناهج العلوم الدقيقة ، وتصطنع بالتدريج ، هى أيضا ، المنهج الاختبارى او تسعى الى تطبيق الصياغة الكمية الرياضية فى ميدان الانسان .

ويتحدث البعض عن صدمة سيكولوجية عميقة وهادئة يستشعرها علماء الإنسانيات نتيجة تقدم العلوم الطبيعية والرياضية وتخلف العلوم الانسانية والفلسفة . كما يتحدث آخرون عن جنين دفين لدى المشتغلين بالانسانيات نحو التشبه بدرجة الدقة والاختبار المالوفة فى العلوم الدقيقة ، وهو حنين اشبه ما يكون فى عمقه وقوته بالرغبة الدفينة لدى الفتاة فى اكتساب القضيب حسب فرويد (1) .

أما فى ميدان الفلسفة فقد جاءت الصدمة أقوى ، اذ الامر لا يتعلق بتخلف منهجى ونظرى فقط ، بل بازمة كيان وهوية نتيجة الانفصال التدريجى للعديد من العلوم الانسانية عن الفلسفة ذاتها . وهى ازمة تعود اعراضها الاولى الى كنط الذى قدم شهادة صريحة على تقدم العلم الرياضى والطبيعى وعلى تاخر الميتافيزيقا .

وقد ظلت الفلسفة الانجليزية أكثر الاتجاهات الفلسفية ميلا الى الحسية والتجريبية والوضعية منذ هيوم الذى دعا الى طرح كل ما لا يتضمن استدلالا رياضيا او استقراءا تجريبيا ، اى ظلت أكثر لاتجاهات الفلسفة حساسية تجاه التطور العلمى .

فى هذا السياق الفلسفى ، تحتل مسمه منجسنتين وضعية مزدوجة وحرجة . فالرسالة المنطقية الفلسفيه من جهة أعتبرت بمثابة انجيل لدائرة فيينا الوضعية المنطقية ، وهى من جهة ثانية مؤلف أساسى ضمن التراث الفلسفى للمدرسة التحليلية التى انطلقت مع ظهور مقال جورج مور المنشور فى مجلة « العقل » سنة 1903 والتى يعتبر راسل أحد روادها . تنتمى « الرسالة » (1921) الى الوضعية المنطقية ، بل تلهمها ، من حيث انها ادانة جهرية للفلسفة بمفهومها التقليدى ، ومن حيث انها تتضمن دعوة الى انشاء « جهاز رمزى » او لغة اصطناعية تحصن الفلسفة الوضعية العلموية ضد الميتافيزيقا ، وهى الدعوة التى حمل لواءها كارناب ، أحد أكثر الوضعيين المناطقة تصلبا فى تصميمه على مناهضة الميتافيزيقا ، وفى عمله على انشاء لغة أصطناعية . كما تنتمى « الرسالة » الى الاتجاه التحليلى من حيث انها تحيل المشاكل الفلسفية على انها مشاكل لغوية ومن حيث انها نقد لغوى للفلسفة لا مجرد تامل فلسفى فى اللغة .

2 — الهوية الجديدة للفلسفة :

يميز مؤرخو الفلسفة عادة بين الوضعية المنطقية (أو الوضعية الجديدة أو التجريبية المنطقية) وهو الاتجاه الذى يمثله رودولف كارناب (+ 1970) والفردج. آير ، وبين الفلسفة التحليلية (مور وراسل وفتجنشتين) رغم أواصر القرابة الفكرية القوية بين الاتجاهين . فالاتجاهان يلتقيان فى المناهضة الشديدة للفلسفة التقليدية وللميتافيزيقا وفى قصر التفكير الفلسفى بصفة عامة على اللغة وفى الدعوة الى ضرب من الفلسفة العلمية .

يمكن أن يتساءل المرء عن العوامل القصوى التى اسهمت

فى توجيه البحث الفلسفى نحو الاقتصار على التأمل فى اللغة كموضوع واحد ووحيد . يرجع آدم شـاف فى كتـابه « اللغة والمعرفة » تزايد الاهتمـام الفلسفى باللغة الذى تم فى القرن العشرين الى عدة أسباب من بينها التطور الكبير الذى حصل فى المنطق ، والثورة الفكرية فى العلوم الطبيعية وتقدم العلوم الاجتمـاعية . فبالنسبـة للمنطق كـان اكتشـاف النقـائض المنطقية والمفـارقـات الدلالية ، فى نهـاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، قد أدى الى حدوث أزمة فى المنطق. فمفارقة مثل « فئة الفئات ليست عضوا فى نفسها » أو مثل مفـارقة الكذاب (كل الاقريطيين كذابون) ، بدت وكأنها تهدد أسس المنطق الصورى والحساب ، لانها تطـرح على الفكـر المنطقى والريـاضى تنـاقضـات تبدو كمـا لو كـانت غير قـابلة للحل . كـان يتعين على العلم فى هذه الوضعية الحرجة، امـا أن يرفض المنظومة المنطقية الموجودة او أن يبحث عن أصل الخطأ . وقد اتجه العلم بعد ذلـك الى محـاولة تحليل منبع الخطأ فى هذه النقائض والمفارقات منتهيا أى أن النقائض تنتج عن الاستعمـال غير المشـروع اللغة (استعمال كلمات مثل « كل » فى (اشارتها للفرد وفى دلالتها على الكل) وشىء وغيرها ..) وكذلك عن الخلط بين اللغة الموضوعية أى اللغة التى نتحدث بها عن الشىء واللغة الصورية أى اللغة التى نتحدث عنها (2) . وقد أشار راسل ثم فتجنشتين فيما بعد الى الاثار الفكرية السيئة النـاتجة عن الخلط بين الصورة الظاهرية للقضايا وصورتهـا المنطقية الفعلية ، وذلك بسبب عدم تلاؤم البنـاء المنطقى مـع البنـاء النحوى .

أمـا فى مجـال العلـوم الطبيعيـة فقد حدثت ثـورة فكرية كبيرة تجلت فى التغيرات التى أحدثتها نظرية النسبية ونظرية الميكـانيكـا الكوانطية فى الجهاز المفهومى للفيزيـاء الكلاسيكية.

هذه الثورة دفعت العلماء والفلاسفة الى التفكير فى أهمية تدقيق المفاهيم والتعبيرات التى تستخدمها الفيزياء فى بناء نظرياتها مثل مفهوم التآنى . بل ان ابراز دور اللغة فى بناء النظرية العلمية قد فتح الباب أمام النزعة الاصطلاحية التى ترى أن القضايا التى تكون صورتنا عن العالم متوقفة بالدرجة الاولى على الجهاز المفهومى المستخدم لصياغة هذه الصورة (3) ان هذه الازمة المفهومية التى قادت العلماء الى ضرورة مراجعة الاجهزة المفهومية ، والى ضرورة ضبط وتدقيق الادوات اللغوية، منفتحة من ثمة على أهمية اللغة ، قد دفعتهم أيضا الى ابداء الحذر تجاه المشاكل الفلسفية والميتافيزيقية ، لانها مجرد كلام خال من أى مدلول أو معنى مضبوط (4) . وهذا هو الاتجاه الفلسفى ــ العلمى الذى سار فيه أصحاب دائرة فيينا ورواد الفلسفة التحليلية نحو اعتبار اللغة هى الموضوع المتميز للبحث الفلسفى الوضعى .

وبصورة موجزة فان أزمة نمو العلوم قد أيقظت الاهتمام الفلسفى باللغة ، فى حين أدت ازمة الفلسفة والتوجيه الوضعى الى اعتبارها الموضوع الوحيد للفلسفة . وقد وجد هذا التوجه تعبيره القوى لدى مهندس أخذ يشتغل بالفلسفة هو فتجنشتين الذى دفع به الى حدوده القصوى . مع فتجنشتين اذن يتحقق ((المنعطف)) الكبير فى تاريخ الفلسفة ، وتولد الفلسفة الدلالية التى تقصر اهتمامها على اللغة ، مقصية من مجالها المشاكل الاجتماعية وكل ما يتعلق بالعالم الواقعى ومعتبرة ان الصراع بين المادية والمثالية مشكل زائف . وترجع اهمية فتجنشتين ــ فى نظر موريس شليك ، مؤسس دائرة فيينا ــ الى أنه أول من رسم طريق التحول الفعلى لتصور جديد للفلسفة ، بعد لمحات ليبنتز ثم جهود فريجة وراسل فيما بعد . فقد قلب تصور فتجنشتين المفهوم الكلاسيكى للفلسفة

ولوظيفتهـا رأسا على عقب . فقد كـانت الفلسفة بحثـا فى العـالم والاشيـاء والقيم وفى الوجود والعدم والجوهر والعلة وغيرهـا ، بينمـا أصبحت معه مجرد تحليل نقدى للغة عامة وللغة خاصة . لم يعد من مهمة الفلسفة أن تقـدم لنـا معرفة عن العالم، ماتقتصر مهمتها على توضيح مانعرف عن طريق العلم، فهى ذاتها لا تستطيع أن تقدم لنـا أية معرفة . « ان موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقى للافكار . ليست الفلسفة نظرية من النظريات ، بل هى فاعلية . اذا يتكون العمل الفلسفى أساسا من توضيحات ، ولا تكون نتيجة الفلسفة عددا من القضـايـا الفلسفية ، لانهـا مجرد توضيح للقضايا . يجـب أن تعمـل الفلسفة على توضيح وتحديد الافكار بكل دقة ، والا ظلت تلـك الافكار عتمة ومبهمة اذا جاز لنـا هذا الوصف » (5) . منهج الفلسفة فى تصورها الجديد هو التحليل ، ووظيفتهـا توضيح الافكـار عن طريق فحص وتشريح الفـاظ وعبـارات العلوم لتقرير مـا اذا كـانت سليمة والى أى حد تسـاير الاستعمالات الجـارية للغة . ولهذا المنهج أهميته الكبرى بالنسبة للعلـم وللفلسفة ذاتها . فبالتحليل اللغوى نتمكن من توضيح الكثير من المشاكل الفلسفية ونتبين انها مشكلات زائفة أو ليست مشكلات على الاطلاق . ان التحليل اللغوى أداة لاشفاء الفلسفة مـن دائها الميتافيزيقى ووسيلة تحول دون تسرب الاشكالات والقضايا الفـارغة من المعنى . « ان معظم القضايا والاسئلة التى كتبت عن أمور فلسفية ، ليست كاذبة ، بل هى خالية من المعنى .» (القضية رقم 4٫003)

الا أن فلسفة كهاته التى يعانقها فتجنشتين ، أى فلسفة تحذو مع العلم حذو الفعل بالفعل تنـاهض الميتـافيزيقـا بحزم، لا تكف مع ذلك عن ان تكون هى ذاتهـا فلسفـة . وفتجنشتين

لا ينكر ذلك ، بل يصرح بأن الفلسفة غير العلم ، فهي فى النهاية ــ أى فلسفته هو ــ شكل من أشكال الرؤيه ، أنها رؤية بوضوح وبدقــة ، ولكنهــا فقط مجرد شكل من أشكـال الرؤية . غير أن هذه الرؤية الفلسفية الجديدة المنكرة للفلسفة والمنـاهضـة للميتــافيزيقــا تسقط فى النهــاية فى نفس المحاذير التى نبهت اليهــا . فبالاضــافة الى النظرة التجريبية وغير التنظيرية التى آلت اليها فى دراستهــا للغة ، حيث راكمــت آلاف الحــالات والامثلة والتشبيهــات والمقــارنسات على حســاب اقــامــة صرح نظرى متكامل ومتمــاسك عن اللغة ، فقد سقطت فى درك الميتــافيزيقــا (المثــالية الذاتية أو التجريبية البــاطنية والذرية المنطقية والهوووحدية المعرفية). ان أولئك الذين شنوها حربا صليبية على الميتــافيزيقــا ، رغم حسن نيتهم ورغبتهم الذاتية الصادقة ، قد وقعوا فى أكثر أنــواع الميتــافيزيقــا رداءة وفى اكثر أنواع المثــالية الــذاتية تطــرفــا (6).

3 ــ اللغــــة اللــوحـــة

يميز دارســو فلسفة فتجنشتين بين لحظتين متميزتين فى تطوره الفكرى : لحظة ((الرســالة المنطقية ــ الفلسفية (1921) ولحظة ((الابحاث الفلسفية)) . الاولى يغلب عليها الطابع المنطقى واللون الوضعى ، حيث يبدو أن فتجنشتين واقع تحت تأثيــر النموذج الفيزيائى ، اذ لا يتصور وظيفة أخرى للغة غير الوظيفة الوصفية فى أكثر صورها ميكانيكية ، مع الدعوة الى انشاء جهاز رمزى يوضع فيه مقابل كل علامة رمز وحيد خاص . أما فى الابحــاث فيبدو أنه قد تحرر من العديد من القضايا التى دافع عنها بحمــاس فى الرســالة كالذرية المنطقية والنظرية التصويرية للغة ، متجهــا بتركيز الى البحث فى الاشكال اللانهائية للتعبيرات المستعملة فى اللغة العــادية . وفى هذا المؤلف تطفــى فكــرة

العاب اللغة وفكرة التشابه العائلي . فهل يمكن ان نقول بان تفكيره عرف قطيعة ابستمولوجية (رغم ان هذه بضاعة فرنسية غير رائجة في أسواق الفكر الانجليزي) ؟ اعتقد انه اذا كانت القطيعة الابستمولوجية تعني انقلابا اساسيا في العلاقات والحدود وتغيرا جذريا لمدلولات المفاهيم ، من ذلك لا ينطبق على تفكير فتجنشتين ، رغم الفارق القوي والواضح بين اللحظتين الفلسفيتين في تفكيره ، وان كانت تعني تطورا وتغيرا في عناصر الاشكالية التي يعالجها المفكر بما فيها من احتفاظ وتجاوز ، فان مفهوم القطيعة غير صالح لانه مفهوم غير جدلي . لذلك فنحن لسنا أمام مفكرين منفصلين بل أمام فكر يتجدد باستمرار .

الفكرة الاساسية السائدة في « الرسالة » هي اللغة ــ اللوحة او اللغة ــ التمثيل . فالوظيفة الاساسية للغة هي رسم أو تصوير أو تمثيل الواقع الخارجي ، وكأن اللغة لوحة أو صورة للعالم . فكما ينقسم العالم الى عدد من الوقائع فان اللغة يمكن أن تحلل الى قضايا ، وكما يمكن أن تنحل الوقائع الذرية الى الاشياء فان القضايا يمكن ان تنحل الى كلمات (7). فالقضية الاولية وصف للواقعة الذرية . لتوضيح فكرة التناظر بين اللغة والعالم ، أو بين بنية العالم يقدم فتجنشتين ــ على عادته بالنسبة لكثير من الافكار ــ عددا من التشبيهات والمقارنات . العلاقة بين اللغة والعالم تشبه بالضبط العلاقة بين تصميم البيت وتنظيم الاثاث فيه ، وبين خريطة العمليات وموقعها الفعلي على أرض المعركة وبين تصميم حوادث السيارات في المحكمة ومواقع اصطدامها الفعلي في الشارع .

في « الرسالة » يطور فتجنشتين نظرية التمثيل التي

سيطبقها على القضايا . والتمثيل عنده يشمل الرسوم الخطية والرسوم الزيتية والصور الآلية ، والخرائط وكذا التشكيلات الثنائية والثلاثية الابعاد كالتماثيل . وقضايا اللغة ، ضمن هذا التصور ، هى اشكال تمثيلية للواقع .

تعود نظرية القضايا باعتبارها تمثيلا الى فريجه الذى ميز بين المعنى والمرجع بالنسبة لكل من الاسم والقضية . الا أن فتجنشتين ، وهو يقبل بوجود مرجع بالنسبة للقضية ، ارتأى أن مرجع القضية هو الواقعة التى تقابلها . للقضية علاقة مزدوجة بالواقع ، بعكس الاسم ، فهى لا تكف عن الدلالة حين لا تكون قضية حقيقية ، اذ انها أشبه بسهم الاتجاه بينما الاسم أشبه بالنقطة . وفتجنشتين يدفع بالعلاقة بين القضية والواقعة الى حدودها القصوى اى الى حدود التناظر بين الاجزاء المدركة فى القضية والاجزاء المكونة للواقعة او للحالة التى تمثلها ، بل يتحدث حتى عن تناظر عددى (8) .

هذا الهوس بالوظيفة التصويرية والتمثيلية للغة ، بخلفياته الوضعية ربنزعته الفيزيائية الواضحة ، كما يرد فى « المرسالة »، سيميل تدريجيا نحو الاهتمام بوظائف أو بأنماط أخرى للتعبير، كالنمط الامرى أو التعبيرات السيكولوجية كالارادة والاختيار والانتظار ، وان كانت هذه تبدو على هامش النموذج الفيزيائى الذى يستهوى ويستقطب جماع اهتمام وهموم فتجنشتين .

فى المرحلة الاولى يبدو أن المشروعية الوحيدة التى يركز عليها فتجنشتين هى مشروعية التوظيف الاخبارى او التصورى عن العالم الخارجى وصفا او تصويرا . فاللغة فى استخدامها المشروع فى قضايا العلم قضايا ذات معنى . واستخدامها فى التعبير عن قضايا تحصيل الحاصل اى فى المنطق والرياضة مشروع ايضا فقضايا المنطق قضايا تحليلية ، اى لا تقول

شيئـــا وانما نكتفى بتوضيح الصفـــات المنطقية . حين تستخدم اللغة فى التعبير عن القضايا التجريبية للعلم وعن القضـــايـــا التحصيليه للمنطق والرياضة ، فهى تستخدم استخداما مشروعا، لانها تنتج قضايا ذات معنى . أما استخدامها خارج هذا الاطار للغه ، كما هو الامر فى قضـــايـــا العلم التجريبى التى تتحدث فهو استخدام غير مشروع كما هو الأمر فى الميتافيزيقا والاخلاق والجمال . ان قضايا الفلسفة قضايا غير مشروعه ، اى خالية من المعنى فهى اشباه قضايا أو قضايا زائفه لا نستطيع ان نحكم عليها لا بالصدق ولا بالكذب ولا يمكن مقارنتها باى واقع خارجى. فالميتـــافيزيقا خلط بين لغة العلم التى تتحدث عن الواقع وتخبر عنه ولغة الفلسفة التى تتحدث عن نفسها « ان الميتافيزيقا عبارة عن فلسفة اسىء تاويلها كعلم للطبيعة ».(9) لذلك لابد من وضع حد للميتافيزيقا باظهار كيف ان الميتافيزيقيين لم يعطوا لتعابيرهم اى مدلول . فى ذلك حسب « الرسالة » هـــو أنهم لـــم يربطوا القضية بعنصر من الواقع . بينما يبدوان السبب فى ذلك حسب « الإبحاث » هو أنهم لم يدمجوا قضاياهم ضمن لعب اللغة ، أى لم يعوا اللعب المختلفة للغة (10) بل ان فتجنشتين يرد أحيانـــا ظهر القضايا الميتافيزيقية الى عدم الربط بين القضايا والواقع اى ان الميتافيزقى « لم يعط أى معنى لعلامات (أى الفاظ) معينة فى قضـــايـــاه » (القضية رقم 6ر53)، وأحيانا يرجعها الى « سوء فهمنا لمنطق لغتنا » (القضيـــة رقـــم 4ر003) . التحليل الاول يتجه الى التمييز بين قضايا العلم الاخبارية ، من حيث هى قضايا مـــادية تتحدث عن العالم وتصفه وقضـــايـــا الفلسفة بـــاعتبـــارهـــا قضـــايـــا صورية (اى يجب أن تكون كذلك) تتحدث فيها اللغة عن نفسها وعن بنيتها المنطقية . وهذا الاتجـــاه قد طوره كـــارنـــاب متجهـــا نحو انشـــاء لغة صورية مثـــالية على غرار اللغة الرمزية الاكسيوماتية التى وضعهـــا

هيبرت للرياضيات (11) • أما التعليل الثانى فيتجه نحو اللغة العادية ونحو ضرورة فهم منطقها ، وهو اتجاه بارز بوضوح فى الرسالة (القضية رقم 4,003) •

من مظاهر سوء فهمنا لمنطق لغتنا عدم التمييز بين الشكل النحوى للقضية وشكلها المنطقى كما أبرز ذلك راسل • فقضية مثل ((انا موجود)) تمتلك شكلا نحويا (س ص) سطحيا يختلف عن شكلها المنطقى العميق (س) ، وعدم مراعاتنا للمعانى المختلفة للفظ الواحد كفعل الكينونة فى اللغات الاوربية حين يرد بمعان مختفة (رابطة ـ محمول دال على الوجود ـ علامة مساواة) ، وكذا الالفاظ المختلفة للمعنى الواحد ، وخلطنا بين المعانى الكلية وأسماء الاعلام الدالة على الذوات والاشياء حيث ننسب للاولى (أى المعانى الكلية كشىء مثلا) أشياء محددة بالضبط تشير اليها فى حين انها مجرد رموز متغيرة كالعلامة س مثلا فى تغيرها (12)• وكذا الخلط بين المرجع والدلالة أو المعنى •

تتعايش فى ((الرسالة)) أذن فكرتان حول اللغة العادية• الاولى مؤداها أن اللغة العادية تخفى البنية المنطقية العميقة وتسمح بتكوين أشباه القضايا وتستخدم ألفاظا بسيطة فى استعمالات متنوعة مما يستوجب آستبدالها بجهاز رمزى يمكننا من تمثيل البنية المنطقية تمثيلا واضحا ويقصى أشباه القضايا ويستخدم ألفاظا لا لبس فيها (13)• والفكرة الثانية انه لتجنب كل ظاهر اللبس والغموض يجب العودة باللغة (الفلسفية خاصة) الى حضن اللغة اليومية مع دعوة الى فهم منطقها الداخلى واضعا اصبعه على بعض مظاهر سوء الفهم • والملاحظ هو أن الفكرة الاولى تتوقف على المعنى غير المحدد الذى يعطيه فتجنشتين للجهاز الرمزى ولحدود هذا الجهاز • وعلى كل فانه فى

((الرساله)) يعتبر ان الاعتقاد بأن انشاء لغة رمزية ((مثاليه)) سيؤدى الى حل المشـــاكل الفلسفية اعتقاد لا يخلو من وهم. ويذكر كرناب بأن فتجنشتين فى مناقشاته مع موريـــس تشليـــك رفض بحزم وعنف هذه اللغة المثالية الاصطناعية لان كل لغة لم تنضج فى نظره ((نضوجا عضويا)) فهى شىء لا طائل منه . ان جذور اللغة ، بالنسبة له ، تمتد فى تشكل الحياة ، مثلها فى ذلك مثل المشى والاكل وغيرها من والوظائف الطبيعية . ومـــا تخيل لغة مثالية الا تخيل لشكل من أشكال الحيوة (14) ومـــن الاكيد ان اهتمام وارتباط فتجنشتين باللغة العـــادية سيتنـامى تدريجيا الى أن يصبح ركنا أساسيا فى فلسفته الثانية ، فى حين انه فى فلسفته الاولى دعا الى ضرورة تكوين جهاز رمزى نضع فيه مقـــابل كل علامة رمزا وحيدا خاصا . ولعل هذا التحول نحو اللغة العادية بصورة نهـــائية لا يرجع فقط الى ربطه اللغة بالحيـــاة الطبيعية للانسان ، ولا الى الصعوبـــات التى تعترض المرء فى سبيل اكتشـــاف أسس جهاز رمزى يختزل ثراء اللغة العـــادية الى نموذج صورى دقيق ، بل يعود كذلك الى اكتشافه التدريجى لثراء ولا نهائية اشكال التعبير فى اللغة انعـــادية على مـــا يكتنفهـــا من لبس وتعدد فى معانى الالفاظ وتنوع فى الكلمات المعبرة عن نفس المعـــانـــى .

4 ــ اللغـــة الاداة أو لعب اللغـــة

أشرنـــا منذ لحظة الى صعوبة تطبيق مفهـــوم القطيمـــة بصدد فكر يتقدم ويتطور احتفاظا وتجاوزا ، اثباتا ونفيـــا ، كفكر فتجنشتين . فالافكار الاساسية الواردة فى ((الابحاث)) توجد بطريقة جنينية فى مؤلفاته السابقة ، مثل ارتباط الدلالة بالاستعمال، وكذا لعب اللغة التى يعتبرهـــا بعض الدارسين بمثـــابة الخيط النـــاظم لكل فلسفة فتجنشتين (15). كما أن افكاراً أخرى قد

ثـــم تجـــاوزهـــا فى فلسفته الثــــانيــــة التى تمثلهــا « أبحـــاث فلسفيه » (1945 ــ 1949) مثل مبدأ الهووحدية ، والتحليل الذرى المنطقى للعـــالم ، والنظرية التصويرية بنزعتها الفيزيائية المتطـــرفـــة .

القضايا الرئيسية فى كتاب « الابحاث » هـــى : الدلالـــة كاستعمال ــ مقارنة الكلمات بالادوات ــ لعب اللغة ــ عـــائلة المعـــانى ــ وذلك فى اطار تصور تواصلى شبه اجتمـــاعى ونفعى براغمـــاتى للغة ، دون أن يؤدى ذلك الى تصور نسقى ودقيق. لان مـــا يميز فكر فتجنشتين ، سواء فى مراحله الاولى او الاخيرة، هو انه فكر الهـــامـــات واشراقـــات تسجل على شكل ملاحظات ينقصهـــا الانسجـــام ، ممـــا يجعل فكـــره مليئـــا بالاحـــراش والمستنقعات ، بل بالتمـــارضـــت والتنقضات التى تضفى على فكره طابع الطرافة وتكسبه حيوية لا تخلو من اثـــارة . هـــذا بالاضـــافة الى أن فلسفته ، وهى فلسفة للغـــة العـــاديـــة ، مكتوبة بلغة غير عـــادية .

تتميز اللحظة الثانية فى فلسفة فتجنشتين اللغوية بالانزياح التدريجى عن بعض المواقف الوضعية . فقد كان يوقن فى المنظور الوضعى للرسالة ــ بان القضية التى لا يمكن تحقيقها ليس لهـــا معنى . فالقضية فى هذه الحـــالة بمثابة عجلة تدور فـــى الفراغ . أمـــا فى « الابحاث » فان هذه العجلة التى تدور فى الفراغ أو اللغة حين تكون « فى حالة عطلة » فتعنى أن المنطوق او القضية تجلب البلبلة لانهـــا غير مندمجة فى لعبة من لعب اللغة ، اى لانهـــا بدون استعمـــال (16) أو مستعملة استعمـــالا خـــارج حدود اللعبة . ويبدو ان مـــا يعنيه فتجنشتين بلعـــب اللغة وعـــائلة المعـــانى وارتبـــاط المعنى أو الدلالة بالاستخدام والسيـــاق قضـــايـــا متقـــاربة فى منظور تواصلى اشمل لوظيفة اللغـــة الطبيعيـــة فى استعمـــالهـــا العـــادى .

لقد وسع فتجنشتين مفهومه للغة بعيدا عن اغراء النموذج الفيزيائى ، فانتبه الى تنوع أنشطة واستعمالات اللغة ودعاها « لعب اللغة »، وفى الفقرة الثالثة والعشرين من « الابحاث الفلسفية » يقوم لائحة بهذه اللعب تضم : الامر ، والتلبية ، والوصف ، والعرض ، وتشكيل واختبار فرضية ، وابتكار قصص ، وتقديم نتائج تجربة بمعونة لوائح ورسوم بيانية ، وحكاية هزليات ، والترجمة ، والطلب ، والشكر ، واللعن ، والرجاء والابتهال (17). وتتناثر لعب أخرى فى بقية « الابحاث » وفى مؤلفات أخرى كالامر ، والتساؤل ، والاثبات ، والتعبير عن احساسات ، والاشارة الى المكان ، والتعجب ، وغيرها كثير من أنماط اللعب اللغوى . ويجدر ان نشير الى ان المؤلف يستخدم كلمة لعبة او لعب بصدد اللغة بمعنى يقارب المعنى البنيوى الدلالى . فكلمة لعبة تعنى الاستعمالات المختلفة للالفاظ والجمل ضمن قواعد معينة هى اشبه ما تكون بالقواعد التى تحكم الاعنة ، فهى تعنى تشابها او تقاربا عائليا فى الاستعمال .

ان تشبيه اللغة باللعبة لا يخلو من غموض وميوعة فى المعنى . فهل لعب اللغة هى القواعد النحوية ، هل هى السياقات المختلفة اللغوية (النصية) والنفسية والاجتماعية لانتاج الحديث اللغوى ، ام هى الاشكال الاسلوبية والبلاغية للتعبير ام هى كل ذلك ام ماذا ؟ . ويبدو ان فتجنشتين لا يحسم بهذا الصدد . المهم ان التشبيه ملهم ومفيد فى توضيح هذه الجوانب كلها فى ثرائها وعدم قابليتها للاختزال . وهو يقتضى نوعا من التناظر بين اللعب واللغة من حيث ان لكل منهما فاعلا (لاعب ـ ناطق) ووحدات (قطع ـ كلمات) وقوانين (قواعد اللعب ـ قواعد النحو) ووظائف وغيرها . اما

اللعب التى فى ذهن فتجنشتين وهو يتحدث عن النحو لتشبيه اللغة باللعبة فهى مباراة كرة القدم وهى ايضا لعبة الشطرنج التى يكثر من ترديدها كنموذج يشير اليه ويتشبه به (18) .

لقد تعرض مفهوم لعب اللغة لعدة انتقادات . فهو ـ بالنسبة لادم شاف تصور للغة قائم على مصادرة مواضعاتية اعتباطية . ان اعتبار اللغة بمثابة لعبة شطرنج ، المستشرى فى الاوساط الوضعية ـ الجديدة (همبل ـ كارناب أير وفتجنشتين نفسه) ينحدر من المقارنة مع الانساق الاستنباطية ومن الخلط بين اللغة الطبيعية واللغات الاصطناعية . ففى حالة اللغات الصورية يمكن أن يقرر المرء بكل تلقائية واعتباطية وأن يختار ، على هواه ، المصادرات وقواعد التحويل . والخطأ يكمن فى النقل الميكانيكى لما هو صالح بالنسبة للغات النظريات الاستنباطية الى تحليل اللغة الطبيعية ، لان وظائف وميكانيزمات اللغتين يختلف تماما . فاللعبة تمارس لذاتها بينما للغة وظيفة تواصلية . أما الالفاظ فهى ، على عكس قطع اللعب ، تتعلق بموضوعات وأشياء وبواقع تعبر أو تخبر عنه ، واعتبارها نتاج انشاء مواضعاتى اعتباطى يقود الى اعتبارها العوبة فكرية وتسلية للذهن ويضعف دورها التواصلى والمعرفى (19) بفصلها عما تعبر عنه .

ولكن من الصعب الفصل فى فلسفة فتجنشتين اللغوية بين لعب اللغة وعائلة المعانى والدلالة كاستخدام . واذا كان الفيلسوف قد أكد فى « الرسالة » ان أحسن وسيلة لتجنب اللامعنى الميتافيزيقى هو ان نظهر للميتافيزقى كيف انه لم يعط دلالة لبعض العلامات فى قضاياه ، فانه يميل الى القول فى « الابحاث » بان الميتافيزيقى يستعمل بعض كلماته خارج لعبة اللغة المالوفة بالنسبة لهذه الكلمة (20) . فمعنى الكلمة مرتبط

بطريقة استخدامهـــا ، وبالضبط بالطريقة العـــادية المألوفة فى استعمالهـــا . فمعنى كلمة ((فهم)) مثلا مرتبط بالشروط المألوفة التى نستعمل ضمنهـــا كلمة فهم استعمـــالا ذا معنى . وللتوصل الى ذلك يجب أن نورد احصـــاء بالحـــالات التى تستخدم فيها هذه الكلمة لنستجلى التشـــابه العـــائلى بين تعبيرات مثـــل : فهم القـــاعدة ـــ فهم المشكلة ـــ فهم المســـار ـــ فهم الشعر... الى آخره . ومثل هذا الجرد وحده يمكننـــا من وصف الترابطات والتشـــابكـــات التى تشكل التمـــاثلات العـــائلية التى تربـــط الاستعمـــالات المختلفة للكلمة فيمـــا بينهـــا (21). ويعرفنـــا عى لعب اللغة التى يمكـــن أن تدرج ضمنهـــا هذه الكلمة حيث تكتسب مدلولهـــا ضمن السيـــاق الذى ألفت أن تدرج فيه .

بالاضـــافة الى تشبيه اللغة بلعبة الشطرنج (وهو تشبيه نجده لدى عالم لغوى هو دوسوسير ، بكل ايحاءاته البنيوية) ، يورد فتجنشتين تشبيهات أخرى . أول هذه التشبيهـــات ، التى نستهدف اظهار مدى تنوع وظائف الادوات (المطرقة ـــ المنشار ـــ اللصاق) تنوع وظائف الكلمات . والتشبيه الثانى هو كون اللغة تشبه غرفة قيادة القطار حيث تختلف وظائف المفـــاتيـــح والاعمدة اليدوية والازرار رغم تشـــابههـــا . والصورة الثالثة هى تشبيه كلمـــات اللغة بالخطوط المرسومة فى خريطة جغرافية التى تدل على معـــانى مختلفة رغم تشـــابههـــا (خطوط الحدود والازقـــة ...) ويقول كذلك ان للكلمـــات استخدامـــات هى من التنـــوع بحيث تشبه الاستعمـــالات المختلفة للنقد الذى نستطيع أن نشترى بواسطته بقرة أو رسمـــا تجـــاريـــا أو ارضية مسرح أو سفرا سريعـــا أو حتى الحيـــاة ذاتهـــا . وهذه التشبيهـــات ذاتهـــا ، على اهميتهـــا فى توضيح الاستخدامـــات المختلفة للكلمة الواحدة وعلى أهمية السيـــاق فى تحديد المعنى ، لا تخلـــو من

صعوبات ، بل ان تعدد التشبيهات مع ما يليه من اغراق فى الامثلة الجزئية تجعل التنظير اللغوى أمرا بالغ العسر . وكما أوضحنا الفرق بين الكلمة وقطعة اللعب يمكن ان نتبين بالبداهة الفرق بين الكلمة والاداة وبين الجملة والأداة . فالكلمة كأداة لا تكتسب معنى ، أى لا تحقق فاعليتها ، الا بتركيبها مع أدوات اخرى ، وبذلك تصبح الجملة ذاتها اداة. كما أن الاستخدام ـ بالنسبة للجملة ـ شىء لاحق على عملية تشكيلها ، فاذا كان استخدامها أمراً مهماً فان تشكيلها وصياغتها عمل حاسم ومحدد (22).

بالارتباط مع اللغة الاداة وعائلة المعانى ولعب اللغة ، يطور فتجنشتين فى ((الابحاث)) نظرية ارتباط المعنى بالاستخدام بما أن لالفاظ اللغة معانى متعددة بل متعارضة أحيانا ، وهى المعانى التى يدعوها فتجنشتين احيانا ((بعائلة المعانى))، تبرز اما فى سياق واحد ضمن نفس الجملة او قد تبرز فى سياقات مختلفة ، فان معنى اللفظ مرتبط باللفظ ذاته أى بطريقة استخدامه . فلو كان معنى الالفاظ منفصلا عن استخدامها لظلت تحتفظ دوما بمعنى واحد ضمن سياقات مختلفة . ان تنوع معانى اللفظ الواحد يجعل المعنى المتولد مشروطا بطريقة استخدامه ضمن سياق معين. ((ان شرح معنى الكلمة يكون باظهار كيفية استخدامها)) . ويبدو أن تركيز فتجنشتين على مسألة الاستخدام والسياق تدفع به الى المطابقة بين المعنى والاستخدام بدل اعتبارهما شرطا اساسيا محدداً للمعنى . ويرى اننا اذا ما عدنا الى اللغة الطبيعية ، فى استعمالها المادى ، بل اليومى، مع مراعاة شروط استعمالها ستجنب المفكر ، وبخاصة الفيلسوف ، الكثير من المزالق المفهومية والعبارات الغامضة.

وهذه الطريقة العلاجية ستقضى على الكثير من الابهامات المرتبطة بالعامل الميتافيزيقى .

اذا لم يوفق فتجنشتين الى صياغة نظرية عامة عن اللغة ، فقد عمق التقليد الفلسفى الانجليزى فى الاهتمام باللغة العادية ، وخاصة فى اكسفورد . فاصول نظرية أوستين AUSTIN فى أفعال الكلام التى تتطور اليوم فى أمريكا على يد سورل J.R. Searl ، تعود الى فلسفة أكسفورد حيث تسيطر الافكار الواردة فى « أبحاث » فتجنشتين .

3 — تنوير أم ثرثرة :

ان فلسفة فتجنشتين اللغوية لا تخلو من تفرد وأصالة وطرافة وتناقض . فهو فيلسوف غامض الاسلوب وهو من أكبر دعاة الوضوح ، وهو مكرر فى حين انه من أكبر دعاة الاختصار « ما لا نستطيع أن نعبر عنه فلنصمت عنه »، وفيلسوف وهو الد وألد أعداء الفلسفة، وميتافيزيقى (بل صوفى بتعبير راسل(23)) فى الوقت الذى يقتاد فيه كل الفلاسفة الى مشنق التحليل اللغوى باسم النزعة العلمية . ويعتبره البعض تنويريا راديكاليا ليستحق أن يدرج بجانب كل من نيتشه وماركس وفرويد ، لانه كشاف أوهام وخاصة وهم المعنى ، ولانه نقل الشك والوجس الى قلب اللغة الفلسفية ذاتها (24) .

الا ان فيلسوفا كماركوز يعتبر فلسفة التحليل اللغوى عند فتجنشتين عينة نموذجية للفكر الايجابى الاحادى البعد. ان هذه الفلسفة فى نظر ماركوز فلسفة قبول بعالم الفكر وعالم السلوك الذى صاغه المجتمع الغربى التكنولوجى المعاصر . بل أنها لا تقبل فقط هذا العالم كما يتجلى فى اللغة العادية اليومية التى هى لغة مكيفة ومشذبة ، وانما

نعبر هذا الواقع المكيف اساسا ومعيارا لكل تقييم وحكم. لقد كيف الواقع التكنولوجي الطبيعة والانسان والفكر وقلص ابعادها واعتبر الواقع القائم بكل مؤسساته وسلوكاته وقيمه هو الممكن الاوحد ، وشن هجوما على الميتافيزيقا التى هى بالنسبة لماركوز المستودع الاصلى لفكر العقلانى من حيث هو فكر ناف وسالب وجذرى لانه يفترض دوما الحلول الممكنة وما يجب ان يكون . ثم يصدر ماركز حكما قاسيا يشمل الوضعية المحدثة والفلسفة التحليلية ذاتها عند فتجنشتين حيث يقول : « لقد استبدلت الوضعية المحدثة عالما من الاساطير والخرافات والهلوسات والاوهام الميتافيزيقية بعالم من اجزاء المفاهيم والكلمات والثرثرات » (25) .

ان حكم ماركوز على هذا النوع من الفكر الاحادى البعد يرتكز على العلامات التالية :

- ابعاد الفلسفة عن الواقع وقصرها على اللغة .
- قصر وظيفتها على الوصف
- العودة الى لغة رجل الشارع التى هى لغة مقلمة ومكيفة من طرف مبدا الواقع الذى يسود المجتمع التكنولوجى .
- نبذ اللغة المتعالية واحكام القيمة وكل ما ينتمى الى مجال اليوتوبيا .

هوامش

J. HABERMAS : Profils philosophiques et politiques. tr. fr. 1974 Gallimard (p. 184).

1 - A. SCHAFF : Structuralisme et Marxisme. Anthropos. 1974 P. 20.

2 - A. SCAFF : **Langage et connaissance**. Anthropos 1973 p. 200

3 - L. KOLAKOWSKI : **La philosophie positiviste.** Denoël Gouthier 1976 p. 220

4 - A. SCHAFF : **Langage et connaissance** p. 201.

(5) — فتجنشتين : الرسالة المنطقية — الفلسفية ترجمة عزمى اسلام — القاهرة القضية رقم 4،112 .

6 - A. SCHAFF : **Langage et connaissance.** collection points p. 75 et introduction à la semantique 10-18 p- 79.

(7) — عزمى اسلام : فتجنشتين القاهرة — دار المعارف ص 130

8 - A. Kenny : Ce que **Wittgenstein a vraiment dit.** Marabout Université p. 59-63.

(9) — فتجنشتين : الرسالة المنطقية الفلسفية ق 6،111 و ق 6،53

10 - A. Kenny : op. cit. p. 169.

11 - J. J. KATZ : **La philosophie du langage.** Payot. 1971 p. 32.

(12) — عزمى اسلام : فتجنشتين ص 138 — 142 .

13 - A. Kenny : op. cit. 83-84.

14 - J. Bouveresse : Langage ordinaire et philosophie . in **Langages.** Larousse n° 21 (1971) p. 39.

15 - G. Hottois : La philosophie du langage de L.W. Editions de l'Université de Bruxelles. 1976 p. 114.

16 - Ibid. p. 64

17 - A. Kenny : op. cit. p. 123.

18 - G. Hottois op. cit. p. 147-149.

19 - A. SCHAFF : **Introduction...** p. 389.

20 - A. Kenny : op. cit. 122-123.

21 - J. KATZ op cit. p. 72

22 - A. Kenny : op cit. p. 125.

(23) — برتراندر راسل : فلسفتى كيف تطورت . القاهرة مكتبة الانجلو المصرية 1960 — ص 138 .

24 - G. Hottois op. ct. p. 202.

(25) — هربرت ماركوز : الانسان ذو البعد الواحد . بيروت — دار الاداب 1969 ص 297 .

3 - طبيعة التفسير العلمي

سـالم يفـوت

نشات العقلانية المعاصرة في مناخ فكري وفلسفي ، من سماته ، كما ذكرنا هذا في خاتمة المقال الاول ، أنه مناخ سجالي انتقادي ! لذا قلنا بأن مختلف مواقفها تتحدد من خلال معارضتها للمواقف التي نعتبرها عاجزة عن استيعاب مظاهر الجدة في الفكر العلمي الجديد ومن خلال مواجهتها بلا . انطلاقا من هذا ، كلما تعلق الامر بالحديث عن موقف العقلانية المعاصرة من قضية ابستملوجية ما ، الا وكان المتحدث ملزماً بأن يربط ذلك بالخصم المعارض (الفتحة فوق الراء) وبالموقف أو المواقف المنتقدة . وأن يضع نصب عينيه لمن تتوجه العقلانية المعاصرة ، لكنها مع ذلك صعوبة لا تمنعنا من أن نستشف ولو بصورة عامة وعائمة ملامح الخصم المعارض ، أنه يبقى في نهاية المطاف ألد خصم العقلانية المعاصرة : ألا وهو الخصم الوضعي . غير أنه يجدر التنبيه الى أننا لا نقصد به المذهب الوضعي وحده ، في صورته القديمة أو

المحدثة ، بل الاشكالية الوضعية ، اى تلك الاسلوب المحدد فى طرح مسالة المعرفة العلمية : والذى نجده حاضرا لا عند تيارات الوضعية وحدها ، بل حتى لدى بعض النزعــات التى لا تسمى نفسها وضعية ، وحضور الاشكالية يتــم بصورة موضوعية ولا ارادية قد تناقض فى كثيـــر من الاحيان الرغبة الارادية المعلنة فى الابتعاد عن تلك الاشكالية وعدم الوقوع فى حبالها . وهو أمـــر مرده الى أن اللاعقلانية فى الابستملوجيا المعاصرة تمثل طيفــا فلسفيا مختلف الالوان ، لكنه رغم اختلاف ألوانه يشكل فى نهاية الامر وحدة نظرية ، تتركب من ألوان تفصح كل منها عن نفـــس الفكرة بأساليب متغايرة المظهر . وهذه مسألة انتبه اليها بشلار فى كتاب ((العقلانية التطبيقية))(1) حيث ركز على ان الوان الطيف الفلسفي قابلة لان يرد بعضها الى بعض نظر الوحدة اشكاليتها . كما انتبه اليها ميشيل فوكو (2) وان كان استعمل حدود مغايرة لحدود بشلار .

غير اننا توخينا للوضوح والدقة ، واجتنابا للمتاهة ، سنحصـــر الخصم الذى تنتقد العقلانية المعاصرة بصدد مســألة التفسيـــر العلمى ، فى المذهب الوضعى المحدث منبهين فى ذات الوقت الى ان هذا لا يعنى اهمال مختلف مواقف باقى التيارات الاخرى ، لانها مواقف يفصح عنها المذهب الوضعى الجديد بصورة أوضح وأبرز وتلتقى معه فيها تلك التيارات ، مثل المواضعاتية ، وان كـــان ذلك بطرق وأساليب ملتوية .

* * *

نبادر الى القول : تعتقد الوضعية المحدثة بصورة عامـــة بتساوى التفسير والوصف . اى انها ترى ان تفسير ظاهرة مـــا يقتضى اعطاء خواصها ووصف مميزاتها مثلما نفعل عندما نفسر

كلمة ايدروجين بانها تدل على غاز او جسم غازى كثافية الذريـــة كذا ... قابل للاشتعال اكثر فى الاوكسجين ، له آلكترون واحد.. فالتفسير ليس شيئا سوى اعطاء وصف مسهب ودقيق . كما ان قيمة النظرية العلمية تكمن فى الاكتفاء بتحليل ترتيب معطيات الملاحظة (3). وفى هذا الصدد يذهب « همبل » الى أن هناك مطلبان اساسيان لا نسمى نظرية أو قانونا مفسرين الا آذا استوفيا هما . فهما اذن شرطـــان ضروريـــان لنحكم على كفـــاية التفسير وعلميته : اولا : ان يكون التفسير وجيها يبرز لنـــا الاسبـــاب الحقيقية المحددة لظهور ظاهرة ما والتى تسمح لنا بتوقعها كلما توفرت تلك الإسباب . ثانيا : ان يكون تفسيرا قابلا للاختبـــار حتى نتأكد من انه تفسير كافى . ويمكن التعبير عن الشرط الاول بعبارة « الاتفاق التفسيرى » اى كون المعطيات التفسيرية التى يمدنا بها التفسير الفيزيائى تقيم أساسا جيدا لتوقع أو اعتقاد ان الظاهرة المعنية بذلك التفسير ستظهر فى ظل ظروف معينه . اما الشرط الثانى فيمكن الافصاح عنه بالقول بان « القضـــايـــا المؤسسة لتفسير علمى ما ينبغى أن تكون قابلة للاختبار التجريبى » والشرطان كما هو ملاحظ مرتبطان أوثق الارتباط فيما بينهما ، فكل تفسير استوفى شرط الوجاهة الا وكان بالضرورة تفسيـــرا تأكدت صحته التجريبية ، اى استوفى فى نفس الوقت شرط قابلية الاختبار ، غير أن العكس ليس ضروريا .(4)

ويمكننا ان نستخلص من هذا ان المذهب الوضعى الجديد والمحدث يربط التفسير بالوصف وبامكانية التوقع . ذلك ان هدف كل علم هو ان يعطى تفسيرا للظواهر التى يدرسهـــا ، اى ان يسمح بتوقع ظهورها ، وهو أمر لا يمكن الا بوصفها . بل يذهب بعض الوضعيين الجدد الى ان قيمة اى نظرية علمية ما تتناسب طردا مع عدد التنبؤات التى تقول بها (5). فالقوة التفسيرية هى

محك معيار علمية النظرية أو العلم عموما . وفى هذا الاطار يلح « كرنب » على ان مهمة النظرية والقانون العلميين تتمثل فى التفسير والتوقع ، فاذا كانت القوانين العلمية ليست شيئا اكثر من عبارات تصوغ باكبر قدر ممكن من الدقة انواع الاطراد والتتالى الملاحظة فى حياتنا اليومية ، فانها تفيدنا فى تفسير الوقائع المعروفة او التى يمكن ان تندرج فى القوانين العامة ، كما تنفعنا فى التنبؤ بالوقائع التى لا نعرفها او لم نعرفها بعد بمجرد معرفة شروط حدوثها (6) .

ان بيت القصيد بالنسبة لمقالنا هذا ، هو أن المذهب الوضعى الجديد يربط صحة التفسير العلمى بقابلية الاختبار والتاكد كما يعتبر عناصر هذا التفسير مستمدة بكاملها من التجربة (7) باعتبار أنه ينظر اليه على أنه وصف يقوم على ابراز خصائص الموضوع وكيفياته النوعية . غير أن هناك نقطة يجدر التنبيه اليها ، ألا وهى أن المذهب الوضعى الجديد يربط التفسير بالخبرة، لا يعتبر كل النظريات استنباطية تكون انطلاقا من قوانين عامة استوفت الشرطين السابقين المذكورين : الاتفاق التفسيرى — وقابليته الاختبار . وتكون تفسيرات استنباطية تندرج تحت قوانين عامة ذات نطاق واسع .

ويتبين مما قلناه أن المذهب الوضعى الجديد يبنى رؤيته للتفسير العلمى على نظرية الى الفروض وعلى مبدا قابلية التاكد الذى يرى ان ليس ثمة قضية او مجموعة من القضايا يمكن تقديمها باعتبارها فروضا او نظريات هامة ما لم تخضع للاختبار التجريبى . ويعنى هذا انه يمكن الحكم على فرض أو نظرية انطلاقا من قابلية للاختبار ، وكل فرض يفتقر الى هذا الشرط لا يمكن تقديمه او التفكير فيه كفرض علمى لانه ليس ثمة ناتج اختبارى يمكن تصوره بحيث يتفق اولا يتفق معها، وفى هذه الحالة

لن تكون ثمة علاقة للقضية بالظواهر الاختبارية أو بمعنى آخر نقول انها تفتقر الى المحتوى الاختباري .(8)

وانطلاقا من هذا الاعتقاد ، ناقش الوضعيون الجدد مسألة العلاقة بين النظرية والوقائع كما ناقشوا مسألة طبيعة الاستقراء التفسيري التي ناقشها الفلاسفة والعلماء . والموقف الوضعي الجديد بهذا الصدد واضح ولا غبار عليه ، ينسجم مع نظرته الاختبارية ومبدء قابلية التأكيد : فهو يرى أن كون بعض القوانين يتم استنباطها منطقيا من أخرى ، فان هذا لا يجعل منها قوانين مؤكدة تحمل معايير صدقها في ذاتها ، باعتبار ان القوانين التي فيها استنبطت مستقاة من التجربة والخبرة ، بالاضافة الى ان معيار صدقها كقوانين أو تفسيرات مستنبطة ليتوقف على تأكيد التجارب لها . « ان العلم التجريبي ، كما يقول ريشنباخ ، وان كان يستخدم العمليات الاستنباطية على نطاق واسع ، يحتاج بالاضافة اليها الى نوع ثان من المنطق، يسمى بالمنطق الاستقرائي، نظرا الى استخدامه للعمليات الاستقرائية »(9) اي ان الاساس الذي يتوقف عليه قبول تفسير ما ليس الاستدلال من النظرية على الوقائع ، وانما هو العكس ، أي الاستدلال من الوقائع على النظرية ، وهذا الاستدلال من الوقائع على النظرية ، وهذا الاستدلال ليس استنباطيا ، بل هو استقرائي . فما هو معطى هو الوقائع الملاحظة ، وهذه هي التي تكون المعرفة المقررة التي ينبغي تحقيق النظرية على أساسها والتاكد من صحة التفسير انطلاقا منها . والموقف الوضعي في هذ المسألة استمرار للموقف البيكني الذي كان يسير في خط معاكس للموقف الجاليلي والديكارتي من طبيعة التفسير العلمي ، والذي كان موقفا « رياضويا » يرى في الافتراضات التجريبية ، بناء رياضيا للتجربة في صيغة قوانين رياضية تستنبط فيها منطقيا قوانين اخرى تحمل معاييرها صحتها سابقة على كل تجريب ، وهذه مسألة سنعود اليها في المقال

القادم . والموقف البيكونى يعطى الكلمة الاولى والاخيرة للتجربة كما يعتبرها ((حاسمة)) فى الحكم على صحة الافتراضات التفسيرية أو عدم صحتها حتى وان تم استنباطها رياضيا من اخرى مؤكدة الصحة . تلك التجربة التى من المنتظر ومن المفروض أن تدحض أحد الفرضين وتؤيد الاخر ، ويتضمن القول بالتجربة الحاسمة ان الافتراض العلمى الذى نطرحه كتفسير للظواهر ، لابد أن يكون ممكن التحقيق بالخبرة الحسية ، اذ لو افترض العالم افتراضا يستحيل على العلم التاكد منه فى الخبرة والتجريبية ، لكان افتراضا لاغيا او عديم القيمة التفسيرية .

غير أن ما يلزم الاشارة اليه ، هو أن القول بالتجربة الحاسمة هو نفسه ما يدعوه المذهب الوضعى الجديد بمبدا قابلية الاختبار ، وعليه يمكن القول بأنه مذهب لم يتجاوز بيكون كثيرا . غير انه مع ذلك ، توجد من شروط التفسير العلمى أن يكون مقتصرا ، أى أن يلتزم الاقتصاو فى عدد الموجودات التى يفترض وجودها لتفسير ظاهرة معينة ، ويطلق على هذا المبدأ فى التفسير العلمى والفروض العلمية أسم ((قانون الاقتصاد)) ومعناه أنه أمام افتراضين علميين يفسران ظاهرة ما ، يلزمنا أخذ الابسط منهما والملائم ، أى ذلك الافتراض الذى يسمح لنا باستنتاج كل الوقائع التى لها علاقة وارتباط بالنظرية المعنية بالدرس .

ولست فى حاجة ، بهذا الصدد ، الى التذكير بأن تركيز المذهب الوضعى على هذه الفكرة يجعلنا على بينة من شيئين : أولهما ، اثر الماخية على المذهب الوضعى الواضح . ثانيهما : الالتقاء الموضوعى حول هذه النقطة بالذات بين المذهب الوضعى والمواضعاتية ، رغم اختلاف منطلقاتهما الاولية .

* * *

تلك كانت بالتقريب ، اهم الافكار الاساسية للموقف الوضعي من مسالة التفسير في العلم ، والملاحظ انها ترجع جميعا الى فكرة اساسية تعتبر النظرية القائمة فيما بينهـا وتنسيقهـا دون ان يتعدى ذلك التنسيق المجال التحليلي الضيق . وهذا بالذات ما ترفضه العقلانية المعاصرة. فقد ابرزنا في المقال السابق كيف انها تسير في اتجاه يمكن وسمه بالرياضوية والاجرائية ، فيما يتعلق بطبيعة التصورات العلمية : تركيب العلاقات لديهـا ، لا يتم بملاحظة العلاقات القائمة بين الظواهر ، بل انشاء الشـروط النظرية لتكرار الظواهر ، والتي يمكننا من الوقوف على علاقاتها الرياضية وعلى البارامترات المتكررة وسط تغيرات لا منقطعة . وكل ذلك يتطلب خلق الشروط النظرية للتجربة اي بناءها عقليا يسمح بامكان ظهور موجودات علمية جديدة كنتيجة للعـلاقـة المتكررة . وهذا يعني أن التفسير العلمي يتم على ارضية اجرائية (طرائقية)، وهذا ما جعل بشلار يركز على أننا في نطاق العلوم الفيزيائية لانجد حدسا بظاهرة يستطيع ان يدل على اسس الواقعية دفعة واحدة، كما لا نعثر على شيء يمكن ان نطلق عليه أسم المعطى والذي يبالغ في اعتبـاره اوليـا في عملية التفسير العلمي ، ان التفسير عملية انشاء جديدة للموضوع وليس وصفا له ، وهي عملية انشاء تتم في ضوء نظرية سابقة ، وانطلاقا من رؤية معينة للظواهر المعنية. فهو اذن تفسير موجه من خلف ومحدد تحديـدا نظريا سابقا . حقا ان التفسير تابع للملاحظة ، غير ان الملاحظة في منظور العقلانية المعاصرة ملاحظة « تحتاج سلفا الى جملة احتياطات تقود الى التفكير قبل النظر ، وهي تصحيح على الاقل للرؤية الاولى ، على نحو ان الملاحظة الاولى لا تبدو ابـدا هي الملاحظة الجيدة . ان الملاحظة العلمية هي على الدوام ملاحظة تحمل طابع المناظرة ، انها تؤيد او تبطل نظريـة سـابقة ، او اطارا ممتعا ، او مستوى ملاحظة »(10). ان المذهب الوضعي

الجديد يركز هو الاخر على هذه المسألة . همبل ، على سبيل المثال ، يشير فى غير ما موضع من كتابه « أسس الابستملوجيا » الى ارتباط التفسير فى بعض الاحيان بنظرية تشكل سند الخلفى، لكن ، بينما نجد العقلانية المعاصرة تلح على أن صحة ذلك التفسير ، صحة داخلية ، باعتباره مفعول تلك النظرية أو مفعول عملية البرهنة ، كما نجد فى جل قوانين النظرية النسبية ، تتشبث النزعة الوضعية الجديدة بمبدأ قابلية التأكد الاختبارى كمعيار لصحته كتفسير ، وهذا الاختلاف وان بدا للبعض أنه ثانوى ، لكنه فى الحقيقة اختلاف اساسى ، يعكس اختلافا أصليا فى الاشكالية التى ينظر منها كل من الاتجاهين الى طبيعة المعرفة العلمية وعلاقة النظرية بالواقع . اذا كان دور الواقع فى نظر المذهب الوضعى الجديد ، هو دور منطلق النظرية ومحك او معيار صلاحيتها ، فان الدور الذى يلعبه الواقع ، فى نظر العقلانية المعاصرة هو أنه بمثابة اشارة للحدث العلمى أو مؤشر نفهم مدلوله ومعناه انطلاقا من فرض معين أو نظرية معينة . فهو بهذا يتحول من واقع خام الى واقع معرفة خصوصا عندما ندرجه فى بنية معرفية معينة ونلزمه بان يصبح نقطة التقاء الواقع بالفكر ، ذلك الالتقاء الذى لا تحدده سلفا سوى الزمات النظرية ، فما يقوم به العالم من قراءة المؤشرات وعقارب بعض الآلات أو الاجهزة ، انما يقوم به باملاء من نظرية سابقة وتفسير سابق على التجربة نفسها . لهذا « فالتجربة نظرية انزلت الى الفعل ، والاداة نظرية اسبغت عليها الصبغة الموضوعية » (11). التجربة لا تكتسب مدلولها العلمى الحقيقى الا عندما تلحق بنظرية أو تفسير سابق ، وهذا هو ما يضفى عليها الخصوبة الموضوعية . التجربة ليست تجربة فى حد ذاتها صادقة ، بل هى تجربة مترتبة على نظرية سابقة ، كما أن التاكد من الفرض لا يكون ايجابيا بمعنى الكلمة الا اذا تم انطلاقا من نظرية أو من مشروع

دراسة نظرية . واحسن مثال يمكن أن نسوقه بهذا الصدد هـــو تجربة (ميكلسون ومورلى) المتعلقة بسرعة انضوء فى انتقاله عبر الاثير هل هى تجربة فاشلة أم ناجحة؟ لقد كانت فاشلة بالنسبة للعالمين اللذين قاما بها لانهما فعلا ذلك داخل شروط نظرية معينة الا وهى شروط الميكانيكا الكلاسيكية النيوتونيه المعتقدة بوجود الاثير يملأ أرجاء الكون كله. فاشلة لانها اتت بنتائج عكس تلك التى كانت منتظرة لها فى ضوء البنية النيوتونية . فالحكم على فشلها أو سلبيتها كان انطلاقا من منظومة نيوتن وفرسنل ومن بنية العلم الكلاسيكى . وما لبث هذا الحكم نفسه فيما بعد أن تغير ، وبدت فى منظومة اينشتين انها تجربة ناجحة وايجابية واستطاعت بالتالى ان تندمج داخل بنية العلم الحديث . فى هذا الصدد يقول بشلار : « تعتبر كل تجربة اجيد صنعها تجربة ايجابية دوما . بيـــد أن هذه النتيجة لا تعيد الاعتبار المطلق الى مجرد اية تجربة ، لان التجربة لا تكون جيدة الصنع الا اذا كانت تامة، وهذا ما لا يحدث الا للتجربة المسبوقة بمشروع مدروس دراسة جيدة بدءا من نظرية تـــامـــة .» (12).

على هذا النحو ندرك أيضا كيف أن العلـــم الحديث غيـــر كثيرا من مفهوم « الفرض » ، اذ لم يعد ذلك التفسير الوقتـــى الذى ننتظر من التجربة الفصل فيه ، بل أصبح لصيقا بالنظرية ، ان لم نقل هو النظرية نفسها ، انه ذلك المشروع المدروس الذى يريد اعطاء تفسير عام شمولى والذى عن طريقه يتم الحسم فى ما يترتب عنه من قضايا او فروض أخرى مستمدة منه . لهذا لم يعد الفرض معزولا ، بل اصبح يتم عن طريق النظرية نفسها أو من طرف تجربة تلقى شروط اجرائها من النظرية نفسها . لهذا يمكن القول ان عهد الفرضيات المتستتة السائبة قد انقضى كما أن زمن التجارب المعزولة المثيرة للفضول والاعجاب (تجارب التفرج التى تحدث عنها كلود برنار) قد انتهى . « لقد أصبحنا

بعيدين جدا عن الطابع ((الافتراضى)) الذى يبدو وان كلمة فرض تفيده ، ذلك ان هذا الاخير رقى الى مستوى النظرية))(13) .

من هذا كله ، نتأدى الى القول بأن ما يسمح بمعرفة الحدث العلمى او التجريب عليه هو النظرية السابقة عليه او الثاوية خلفه ، كما لا يكتسب قوته العلمية آلا من خلالها ، وكلما آغتنت النظرية بفعل تطور المعرفة انعكس ذلك الاغتناء على الحدث العلمى نفسه . وهذا ما يجعل العلم يحطم ويكسر ذلك الــدور الفاسد آلذى خطته النزعة الوضعية لعلاقة التجربة بالفــرض والذى يجعلنا نذهب من آلتجربة الى الفرض باعتبــاره هو مـــا يعطى للفرض تسويغه الواقعى ، وهو دور ، كما نلاحظ ، يجعل المعرفة ، كى تقوم ، محتاجة الى التجربة وبالتالى ان قيامها يتم باملاء من التجربة ، كما يعطى كدليل على صحة الفرض وصدقه العملى التجربة باعتبارها مبرره ومسوغه الواقعــى . الشيء الهام الذى يتجاهله المذهب الوضعى ، هو اننا فى العلــم كــى نعرف ونفسر ، لا نكون بالضرورة ملزمين بالرجوع الى الخبرة ، بل بالرجوع الى نظرية ، أو الى معرفة ســابقة . فالمعرفــة والتفسير يستلزمان المعرفة ويستوجبانها ، أى يتطلبــان مــادة معرفية سابقة تكون بمثابة المادة الاولى لمعرفة . كما ان تركيب هذه الاخيرة وانشاءها لا يتم انطلاقا من لوحة بيضاء أو ابتداء من عقل غير ذى بنية ولا معرفة بل انطلاقا من المعرفة نفسها أو من الواقع الخام الذى لم يمسسه الفكر ولم يتناوله بشيء من التهيئة والتنشئــة .

ومثل هذا الحوار الابدى المتواصل بين المشخص والمجرد والذى يكتسب فيه المشخص موضوعية أكبر كلما ارتقى المجرد ، يؤدى بالعلم المعاصر الى أن يعوض العلاقة الدائرية الفارغة التى يقيمها الوضعيون بين التجربة والعقل بعلاقة دائرية جدلية تتخذ

شكلا حلزونيا يرقى فيه العقل، ومن ارتقائه ذلك يغنى التجربة نفسها وحولها بالتدريج من تجربة خام الى تجربة عالمة كما يغنى الواقع وذلك باضفاء الصبغة الموضوعية عليه ويجعل معرفته رهنا بمستوى المعرفة وبمستوى القياس والذى هو مستوى تلعب فيه أدواتنا ووسائلنا العلمية الدور الاساسى . فالنظرية التجربة تتبادلان النصح باستمرار وتتكاملان بكيفية متبادلة الا أنهما فى ذلك النصح وذلك التكامل تقتربان ، واقترابهما ذلك يتناسب تناسبا طرديا مع تقدم العلم والمعرفة . ان مسالة تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب اكتسبت معنى مع السيمائيين انطلاقا من اعتقادهم النظرى امكان ذلك . غير انها فقدت معناها انطلاقا من النظرية الذرية الاولى التى كانت تعتقد أن لكل معدن عناصره الكيمائية الخاصة به وان تحويل عنصر آخر مستحيل . لكن ظهور النظرية الكوانطية وظهور نموذج بوهر للذرة جعل الفيزيائيين حاليا يعتقدون امكان تحويل الزئبق الى ذهب لان ذرة هذا الاخير لا تختلف عن ذرة الزئبق الا بنقص الكترون واحد . والدرس الذى نستنتجه من هذا المثال هو أن الجواب الحاسم لا يمكن انتظاره من التجربة بل من النظرية ، والمعيار الذى نحسم عن طريقه فى نظرية ما أو تفسير ما ، معيار بنيوى يراعى مقتضيات التماسك الداخلى للنظرية — الارضية التى انطلاقا منها يتم التفسير ، والتى سمحت به . فعدم انسجام الفرض مع البنية وتنافره مع عناصرها هو ما يجعل منه فرضا مرفوضا من طرف هذه البنية دون أن يعنى ذلك طرده نهائيا اذ تبقى امكانية انسجامه مرتقبة . وكمثال على ذلك نسوق مسالة قياس سرعة الضوء واختلاف طرحها ودواعى نجاح أو فشل المساعى التى بذلت فى ذلك من خلال تاريخ العلم (14) .

بعد نجاح مقياس سرعة الصوت من طرف العالم (ميرسن) فى أوائل القرن السابع عشر ، قامت معركة حامية بين العلماء

آنذاك حول سرعة الضوء . منهم من يقول بان سرعته لا نهائية خارجة عن نطاق حسابات العلوم ، ومن هؤلاء الفيلسوف ديكارت صديق « ميرسن ». ومنهم من يقول بأنها متناهية يمكن بنفس الطريقة التى تم بها حساب سرعة صوت . ومن هؤلاء جاليليو الذى حاول أن يقيس سرعة الضوء لاثبات صحة رأيه ، فخرج فى ليلة ظلماء مع أحد معاونيه ، وكل منهما يحمل مصباحا موضوعا فى صندوق خاص مغلق له فتحة فى أحد جوانبه تغلق وتقفل عند اللزوم ، اذا فتحت يخرج الضوء الى الخــرج وان اقفت يحجب النور . وطلب من مساعده أن يجلس فى محل يبعد عنه 5 كيلومترات وان يفتح النور اذا هو فتح نور مصباحه وأعطاه الاشارة فأجاب عليها ، وحسب ألوقت الذى استغرقه الضوء فى قطع 5 كيلومترات ، ثم غير المسافة بينه وبين مساعده وأعاد التجربة ، ولكنه وجد أن تجاربه كلها لا تنطبق على بعضها البعض، فأسقط فى يده . والفكرة التى استعملها هن جاليليو صحيحة ، انما فى أطار الاعتقاد بمشابهة سرعة الضوء لسرعة الصوت ، وهنا يكمن بالفعل سبب فشلها ، لهذا كان جاليليو فى محاولته هذه مثل من يريد أن يقيس محيط الكرة الارضية بالشبر ، لكن فشل تجربة جاليليو لا يعنى استحالة قياس سرعة الضوء على الاطلاق ، وما يؤكد لنا ذلك هو أن نجاح ذلك لم يتم الا داخل الاعتقاد بعدم مشابهة سرعة الضوء لسرعة الصوت والقول بان سرعة الضوء خارقة جدا . وقد تم ذلك من مستويين مختلفين : من مستوى علم الفلك الكلاسيكى ، ذلك أن العالم الدنمركــى « رومــر » Roemer الذى عاش فى أواخر القرن السابع عشر قام بتجربة سرعة الضوء فى المسافات البعيدة بين الكواكب وذلك بالانطلاق من نفس المعطيات التى يرجع فضل ظهورها الى جاليليو . كان رومر يراقب الخسوفات فى أقمار المشترى فوجد

ان وقت خسوف هذه الاقمار واختفائها خلف كوكبها يختلف فى الوقت الذى تكون فيه الارض قريبة فى مدارها من المشترى عن الوقت الذى تكون فيه بعيدة عنه . وقدر « رومر » أن هذا التاخير مسبب عن حركة الأرض فى مدارها ، وان الفرق فى الوقت هو ما يحتاجه الضوء لقطع قطر المدار . وبناء على حساباته تلك وجد ان سرعة الضوء تبلغ ثلاث مائة الف كلم فى الثانية . والشىء الغريب هو أن « رومر » فى جميع مراحل هذه التجربة استعمل التلسكوب المخترع من طرف جاليليو . ورغم هذا النجاح الذى لقيه « رومر » بقى حلم تحقيق قياس سرعة الضوء فى الارض تجريبيا يراود العلماء ، والحقيقة ان هذا كان متعذرا فى اطار الميكانيكا الكلاسيكية ، ولم يتحقق الا فى نهاية القرن التاسع عشر على يد « فيزو » الذى استطاع أن يقيم تجربة تقوم على صنع جهاز نتمكن بواسطة قياس سرعة الضوء قياسا أرضيا . وهى تجارب كانت لها نتائج هامة فى تاريخ العلم اذ انطلاقا منها قام « ميكلسون » بتجربته المشهورة على الاثير . وفى هذا الصدد يقول اينشتين : « ان خلق أسئلة جديدة وامكانيات جديدة ، ان النظرة الى المشاكل القديمة من زاوية رؤية جديدة ، كل ذلك يتطلب خيالا خلاقا يحقق للعلم تقدما حقيقيا »(15) . وهذا ما نلاحظه مع « فيزو » الذى انشأ تجربة صنمية لقياس سرعة الضوء على الارض وبهذا يكون قد طرح المسألة داخل نفس الاشكالية التى ستؤيدها النسبية والقائلة بأن سرعة الضوء فى جميع انظومات الاسناد واحدة ومتشابهة ، والصعوبات التقنية التى لقيها جاليليو كانت فى الحقيقة صعوبات نظرية ، اذ أن نجاح كل تجربة متعلق بشروط أجرائها كما أن « قيمة دروس الواقع تتناسب مع ايمائها بتحقيقات عقلية » (16) .

ان علاقة النظرية بالتجربة هى علاقات جد وثيقة حتى أنها تجعل طريقة تجريبية أو عقلية فى شك من قدرتها على الاحتفاظ

بقيمتها ، ويمكننا ان نمضى الى ابعد من ذلـك ؟ ان الطريقـة الممتازة تنتهى بان تفقد خصبها اذا لم تجدد موضوعهـا (17) أى اننا امام تأثير متبادل وحوار أبدى بين الفكر والتجربة ، لكنـه تأثير جدلى خصب يعكس الطابع المتقدم للمعرفة العلمية ، كما انه حوار يرقى فيه الفكر وينعكس رقيه ذلك على التجربة . وكل هذا يتخذ صورة نظريات علمية متتـالية ينقـح بعضهـا الاخر أو ينفيه ، او يتخذ صورة اعتبارات يناقض الجديد فيهـا القديم أو يكمله . وقد لفت هذا المظهر الجدلى لتعاقب النظريات والتفاسير العلمية نظر الكثيرين من فلاسفة العلم غير العقلانيين، غير أنهم انتهوا الى نتائج وتاويلات لا تطابق العلم : تاويلات تمثل الشكية واللاادرية بطانتها الفلسفية . المواضعـاتية فى فرنسا مثلا ، مع بوانكرى اعتبرت أساس تقدم العلم ابحث عن اليسر والملاءمة ، فهما المعيار الذى ينهجه العلم فى اختيار نظرياته وتفاسيره وان المعرفة العلمية لا تثبت على حال ، فهى فى تطور مستمر ، كما أن النظريات لا تتاكد ابدا تاكيداً تاما ، لذا فهى عديمة القيمة المطلقة . ومن ذا الذى يمنعنا من ان نتبع نظريات اخرى نستطيع بواسطتها تفسير نفس الوقائع التى يعتمد العلماء فى تفسيرها على نظرية بعينها او فرضية معينة أما درجوا عليها بفعل العادة او لانها شائعة ؟ مهما يكن لنظريات علوم الطبيعة من كمال ، فلا ينبغى اعتبارها الا كوسائل كلامية ملائمة ، انهـا وسائل لتصور الاشياء ، نافعة لاذهاننا البشرية ، او حيل مبتدعة للسيطرة على الكون ، ولا يجب اعتبارها أكثر من حيلة . وعلى هذا النحو لا تصبح للعلوم الا قيمة عملية وقتية . انها تمدنـا بوسائل ملائمة لتصنيف الظاهرات ولحسابها واستعمالها . وهى لا تطلعنا على اية حقيقة بالمعنى التام . الملاءمة تتجلى فى نظـر « بوانكرى » فى كون المبادىء التى ينطلق العالم منها هى مبادىء

اعتباطية لم يتحكم فى وضعها اى معيار ضرورى وموضوعى ، خصوصا وان العالم يطرحها هكذا على صورة مسلمات او لم يتحكم فى وضعها اى معيار ضرورى وموضوعى ، خصوصا وان العالم يطرحها هكذا على صورة مسلمات أو قضايا أولية ، يعمل بكل وسائله على أن تاتى التجربة مؤيدة لها . لذا فهى ليست فى الحقيقة سوى تعريفات مموهة ويتجلى أيضا فى كون النظريات العلمية ألتى يكون على العالم اختيار احداها لتصوير الظواهر ، هى بمثابة صور او لوائح يمكن الاستعاضة عن احداها بالاخرى. (18)• وما تعيبه العقلانية المعاصرة على بوانكرى بهذا الصدد هو اعتماده بتكافؤ التفسيرات من الناحيه النظرية وتفاوتها من حيث السير والملاءمة من الناحية العلمية . ان تاريخ العلم يؤكد انه فى نفس الفترة التاريخية قد توجد نظريات لا يلائم بعضها التفسير ولا يحفز على تقدم العلم ، بل يعوقه و يقف حجر عثرة امامه ، كما ان بعضها الاخر يفتح أمام العلم آفاقا وأسعة . فقد كانت نظرية الاثير مع (فرسنيل) تعوق الطريق أمام دخول العلم الى النظرية النسبية • وان نقص صوره نظرية ما ليس يظهر من خلال القوانين التى جاءت النظرية نفسها لتفسيرها ، بل بالنظر الى المستقبل والى ما سيجد من اكتشافات لقوانين جديدة لا تندرج فى البنية الجاهزة للقوانين السالفة • لهذا لايمكننا فى العلم الحديث عن « تجربة حاسمة » بالمعنى البيكونى والتى تتيح لنا أن نختار من بين نظريتين تلك التى سوغتها التجربة • فالتجربة فى العلم لا تاخذ مدلولها ومعناها الحقيقى الا داخل مجموع النظرية التى توفر بشروط قيامها ترسندنتاليا كتجربة ، كما أن فشل التجربة لا يهيئنا كلية لمعرفة المبدأ السلبى فيها كتجربة • فبعد ظهور « المفعول كمتون » سنة 1923 والذى تبين منه للعلماء ان الفوتون اذا لقى الكترونا ضعيفا ازاحه عن

موضعه ، أعطاه نصيبا من طاقته ، وبذلك تصبح طاقته أقل ، ظهر للعلماء ان فيه دليلا قاطعا على الطبيعة الجسمية للالكترونات والفوتونات خصوصا وأنها فى اتقائها واصطدامها تتبع نفس القوانين الميكانيكية للتصادم . غير أن الميكانيكا الكوانطية ما لبثت فيما بعد ان اعطت تحليلا وتفسيرا لنفس هذه الظواهر انطلاقا من النظرية الموجبة .

فتكاثر التفسيرات والصيغ النظرية يعكس فى الحقيقة الخصب التاريخى للتفسير العلمى وقدرته على تنويع وسائله فى الفهم والمعرفة . وكل تفسير أو صورة نظرية لا تولد الا لان العلم اصبح يشعر بأن ثمة شىء أصبح يتعذر علينا معرفته بالتفسيرات المتوفرة بين ايدينا ، أو ان تناقضا ما على وشك الظهور ان تمادينا فى التشبث باعتباراتنا النظرية الجاهزة . فكل نظرية جديدة لا تنشأ الا عندما يتغير الافق المعرفى والنظرى ، وليست استمرارا للنظريات السابقة عليها . وهذا ما يعطى للاكتشافات العلمية طابعها التجديدى الجدلى ، اذ فى كل اكتشاف وخلفه يوجد تغير فى بنية العلم فى عصر معين .

وأن كنا كثيرا ما نلاحظ أن الصيغ فى بنية معرفية جديدة لاينشأ ليبين حدود التفسير القديم . وسلب قيمة الصلاحية التفسيرية عن تفسير ما لا يتم بحافز ذاتى مواضعاتى ، بل لضرورات علمية موضوعية يحكمها كون العلم يسعى الى توسيع قدراته التفسيرية .

ان ظهور التفسير النسبى ثم ضدا على التفسير النيوتونى، والمسألة لا تتعلق بتفسيرين متكافئين نظريا لكن أحدهما أيسر عمليا ، بل بتفسيرين أحدهما يضيق من صلاحية الاخر ويقلل من قوته التفسيرية . ولم يكن من الممكن انبثاق النسبية عن النيوتونية كاستمرار لها وعلى نفس الطريق ، لان النيوتونية كانت تمثل

نظاما بنيويا منغلقا على نفسه ، وكل تصحيح له فى اطار الابقاء على ثوابته البنيوية كان يؤدى الى نتائج متناقضة (كصعوبة تفسير تجربة ميكلسون ومورلى فى ضوء النيوتونية). يقول بشلار : «ان ارهاف النسبية لا ينبثق أبدا عن تطبيق النيوتونية بارهاف ولذا لا يصح القول بدقة أن العالم النيوتونى يضمر سلفا عالم أينشتين فى خطوطه الكبرى (...) وعلى هذا فليس ثمة انتقال موصول بين مذهب نيوتن ومذهب اينشتين . ونحن لا نمضى من الاول الى الثانى بتكتيل المعرفة ومضاعفة العناية بالمقاييس وبتصحيح المبادىء تصحيحا طفيفا ، بل ان الامر يقتضى ، على العكس ، بذل جهد تحديد كامل »(19). الميكانيكا النيوتونية تصبح مجرد حالة خاصة فى الميكانيكا الاينشتينية والانتقال من تلك الى هذه لا يتم بكيفية خطية متصلة ، بل بنقلة طفروية تؤدى الى أن تصبح الافكار الجديدة بنية متسعة تشمل وتحتوى الافكار القديمة وتغليفها تغليفا جديدا . كل ذلك يتم باكراه وموضوعية يجد العالم نفسه امامها ملزما بالخضوع والاستسلام وبالتخلى عن جميع المعايير غير تلك التى تلزمه بها الممارسة العلمية نفسها . فى العلم، نصبح بعيدين جدا عن معايير اليسر والملاءمة التى قال بها بوانكرى والمواضعاتيون : ذلك اننا فى تاريخ العلم نشاهد تحسر العلماء على انهيار الافكار القديمة التى انشئوا اليها اعتقادا أنها أيسر وأنسب ، نشاهد ايضا تصلبهم لنفسى تجاه كل جديد . لقد هاجم « لورنتز » النظرية النسبية الخاصة بشدة ، رغم انها فى قسم كبير منها نشأت موضوعيا عن معادلاته الكهرطيسية . اينشتين نفسه هاجم بضراوة منقطعة النظير التفسير الكوانطى رغم أنه يعتبر احد من ساهموا بكيفية مباشرة فى وضع لبناتها. « لقد قضى اينشتين سنوات (...) حاول فيها أولا اثبات وجود تناقضات داخل النظرية الكوانطية (...) لكنه لم يعثر على هذه

المناقضات بل ماكان يعتقده تناقضات ، كان يعثر على حله بالرجوع الى آرائه هو نفسه السالفة . وبعدما ثبت لديه ، بعد المحاولات العديدة ، ان مجهوداته ضاعت سدى ، لم يبق أمامه سوى القول بان نظرية الكوانطا لم تكن تروقه ، لم تكن تعجبه عناصر الارتياب التى كانت تقوم عليها . كما لم يعجبه التخلى عن الاتصال والعلية . وهى كلها مفاهيم ترعرع فى جوها ودافع عنها باستماتة ، لهذا صعب عليه مشاهدة انهيارها على يديه خصوصا وان محطميها استعانوا فى ذلك بمعاول اينشتينية» (20).

التفسير فى العلم لايكتفى بالشرح ، شرح المعطى والاقتصار على التفكير فى الخبرة الحاضرة ووصف سماتها البارزة ، بل يمدر فى أمكنات التجربة نفسها . وهنا يكمن الفارق الحقيقى بين موقف العقلانية المعاصرة والموقف الوضعي الذى يستلزم فى جميع المفاهيم المستخدمة فى العلم تحليها بالصفة الاختبارية . ففى الممارسة العلمية لا تقف النظرية عند حدود شرح وتفسير الواقعى، بل تحاول أن تصبح أداة كشف الواقعى باضفاء الصبغة الموضوعية عليه ، وهذه العملية الاخيرة لا تتم الا بالتفكير فى الامكانات التى تنظم التجربة رياضيا وتجعل من الواقعى مجرد حالة خاصة عن أحوال الممكن . « ومن هذا التنظيم الرياضى لامكانات التجربة نرجع عندئذ الى التجربة بطرق أكثر استقامة . ونلقى من جديد الواقعى على انه حال خاصة من أحوال الممكن ، ولا شك ان هذا المنظور قادر على تبيان توسع الفكر العلمى .»(21). وهذه العملية التى يسميها بشلار توسع الفكر العلمى، تلعب فيها الرياضيات الدور الرئيسى ، فهى تشق طرقا جديدة ، غير تجريبية للتجربة . الا انها طرق ودروب يمتد فيها الممكن بالواقعى اتحادا يتم دون موافقة التجربة الاولى وضد المعرفة الاولى ، معرفة الخبرة المباشرة . والدليل على ذلك هو أن ما يحكم الرياضى بامكانه ، مراعاة لاعتبارات نظرية صرف ، ما يلبث الفيزيائى

المجرب أن يحققه ويعثر عليه واقعيا ، وفي ذلك دليل على اتحاد الممكن بالواقعي ومجانسته له ، غير انه اتحاد وتجانس ترنسندنتالي يوفر شروط امكان فهم الواقعي وتفسيره .

ان المشاكل النظرية التي عرفها بعد موضع العالم بوهر ((النموذج الكوني)) للذرة ، والمتمثلة في بعض المسائل المتعلقة بتحول الالكترون من مدار الى آخر التي بقيت غامضة مما أدى بغية الزيادة في الدقة الحسابية الى افتراض موجودات حلمية جديدة ، افتراضا نظريا ، مثل ((الانفتال)) و ((البوزيتون)) و ((المغنط)) ، تؤكد الطابع الاكسيومي للعلم والبنيوي لتفسيره. فنقائص النظرية السابقة ومحاولة التغلب على صعوبات التفسير التي تطرحها هي ما تؤدي الى اكتشاف موجودات علمية جديدة ، وان كان هذا الاكتشاف قد يتخذ صورة خيال حدسي ، فان ذلك لن يجعله بالضرورة حلا تجريبيا حدسيا للمسألة ، وهذا ما يطرد من التفسير العلمي كل انشداد انطلوجي واقعي يعتبر التفسير افتراضا يشرح الظاهرة ويعتبر هذه الاخيرة ومطابقة لها معيارا لصحته (22).

هكذا نلاحظ أن التفسير غالبا ضدا على الواقع ، ويتخذ ذلك صيغة التغلب على المشاكل المطروحة بابداع واقع جديد ابداعا نظريا انطلاقا من اعتبارات نظرية صرفة . فاكتشاف كوكب نيبتون تم عن طريق محاولة للتفسير ، تفسير الخلل الحاصل في بعض الكواكب المعروفة مثل أورانوس . كما أن اكتشاف ((ابروتون)) تم عن طريق محاولة تفسير ، تفسير عدم الاعتدال الكهربي للذرة بعد اكتشاف الالكترون . ذلك أن وجود الالكترون يدفعنا ضرورة الى افتراض وجود جزيء آخر يكون ذا شحنة موجبة الا وهو البروتون . والضرورة التي تدفع بنا الى ذلك ضرورة نظرية مترتبة مباشرة عن قانون مصونية الطاقة . فحتى تكون

الذرة معتدلة لابد من افتراض وجود عنصر موجب الشحنة لتتعادل الكفة . وحتى التجربة التى قام بها العالم « ميليكان » والتى انتهت باكتشاف الالكترون لا يمكن اعتبارها تجربة « حاسمة » ذلك ان الالكترون وجد تسويغه مسبقا بكيفية نظرية فى الاعتبارات المترتبة عن القول بالمجال الكهرطسى ، فكان الانطلاق من افتراض المجال الكهرطسى هو الذى قاد العالم الى الظاهرة واخذ بيده اليها وليس العكس . فتجربة (ميليكان) لا معنى لها خارج مفهوم المجال الكهرطسى اذ متى قلنا بهذا الاخير قادنا ذلك ضرورة الى وجود الالكترون ثم قادنا هذا الاخير بدوره الى وجود « البروتون » حتى وان لم نجرب على وجوده . يقول اينشتين : «ان العلم يلزمنا بابداع وخلق نظريات جديدة يكون الغرض منها هدم ركام التناقضات التى اصبحت تعوق الطريق أمام تقدم العلم . وجميع الافكار الاساسية فى العلم نشات داخل صراع مأساوى» (23).

بهذا يصبح الواقعى مجرد حالة من حالات الممكن كما يصبح تسويغه وتفسيره متعلقا بالمسلمات الاولى التى سمحت بتركيبه وانشائه أى متعلقا ببنية أعم وأشمل ألا وهى بنية العقلى الذى له جدور واقعية عميقة باعتباره متمفصلا بالواقع ، لكنه مع ذلك يركب الواقع ويبينه ويفجر امكاناته تفجيرا عقليا . لهذا أيضا يتحول الواقعى والعيانى ويبدو غاية ، لا منطلقها ، نحوه يتجه العلم فى حركة اضفائه السمة الموضوعية على الامور ، الا انها حركة تتجه الى اعلى لا الى اسفل ، أىحركة تتم عبر نزع الصبغة المادية عن الواقع واضفاء الصبغة التصورية عليه . واقصد بالصبغة التصورية ، صبغة العلاقة والانشاء .

وعبثا يحاول دعاة النزعة الاختبارية عامة دعاة الاختبارية المنطقية أن يعثروا على منطلق حركة العلم فى ما هو واقعى وعيانى ، لكنهم يصطدمون بهذه الحقيقة التى أبرزناها وهى أننا

« لا نبلغ أبدا واقعا عيانيا خالصا غير ذى علاقة بأية عملية اضفاء الصبغة التصورية »(24) انهم يريدون تغيير اتجاه حركة العلم فى بحثه عن الواقع الموضوعى وتحويلها الى أسفل اى جعلها حركة تراجع الى الوراء نحو الاولى الخام التى هى أصل كل التركيبات . الا انهم لا يعثرون على ضالتهم تلك فتذهب مجهوداتهم سدى ، اذ رغم ما يقومون به من أرجاع الهندسة الصورية عند « هيلبر » الى « أصلها » الذى يعتقدون العثور عليه فى هندسة اقليدس والتى هى بدورها تطوير واستمرار لهندسة المصريين والبابليين ... وهذه بدورها الى صورة اكثر ابتدائية ... فانهم فى الاخير يجدون انفسهم دائما لا أمام مادة اولى خام ، بل أمام واقع مصقول ومنقى ، امام الانشاءات والتركيبات التى يلجأ اليها الانسان حتى فى ادراكه الاولى للاشياء واحتكاكه بها ، يقول « بلانشى » : ليس للمعرفة قاعدة سفلى او مادة أولية ، وبنفس الكيفية ليس لها سقف او قمة عليا ، ان لها انفتاحا مزدوجا من أسفل ومن أعلى ، الا أن غياب القاعدة الاولى لا يعنى غياب الواقع وغياب تمفصل الفكر الواقع ، الا أن الفكر يسمو بهذا الواقع ويتعالى به وعنه كى يحيط به احاطة أشمل . ويتخذ هذا التعالى صورة دوران حلزونى غير ذى نهاية ، الا انه دوران آخذ فى الاتساع ، كما تفصل بين حلقاته ودوائره فواصل تعكس الوان القطيعة التى تصاب بها المعرفة بين الفينة والاخرى .

* * *

ان الموقف العقلانى المعاصر ، بمحاولته تحاشى كل نظرة اختبارية لطبيعة المعرفة العلمية ولطبيعة التفسير العلمى ، واجتناب الوقوع فى المزالق البرجمانية والموضعاتية التى سقطت فيها جل التيارات الوضعية بصدد مسالة شروط التفسير العلمى

ومعاييره ، سار فى اتجاه يمكن وسمه بالرياضوية والتى من أبرز صورها التركيز على الجانب الصورى فى النظـــر الى المعرفـــة العلمية وربط يقينها وضرورتها بهذا الجانب ، أى فى اتجاه يركز بشكل قوى على دور العوامل التى أهملتها التيارات الوضعية ، فى عملية المعرفة . ألا يجعل هذا من العقلانية المعاصرة « افلاطونية جديدة » على مستوى نظرية المعرفة ، ومن موقفها استمرارا لما دافع عنه افلاطون فى محاورة « تيتاوس » الشهيرة حول العلـــم حينما ميز بين معرفة اختبارية لا توصلنا الا الى الظن وأخرى عقلية تعطينا اليقين ؟ على أى حال ، لا يملك المرء الدارس للعقلانية المعاصرة نفسه من طرح السؤال حول الاصول الفلسفية للعقلانية المعاصرة وحول علاقة العلم بالمثالية ، وهما مسألتان سنعالجهما فى المقـــال القـــادم .

الهـــــوامـــــش :

1 — G. Bachelard — Le rationalisme appliqué — P.U.F. 3è éd. 1966.

2 — Michel Foucaut — L'Archéologie du savoir — Gallimard - 1972. p. 73-74.

3 — W.M.O'Neil — Faits et théories — Trad. Pascal Acot - A. Colin - 1972. p. 194.

4 — C.G. Hempel — Eléments d'épistémologie — Trad. B. saint Sernin - A. Colin - 1972. pp. 73 et sq...

5 — Sephen Toulmin — L'explication scientifique — Trad. J. J. - Lecercle - A. Colin 1973. p. 24.

6 — R. Carnap — Les fondements philosophiques de la physique — Trad. J. Luccioni et A. Soulez - A. Colin 1973 p. 11 et 14

7 — O'Neil — p. 164-165.

8 — C. G. Hempel pp. 46-47.

— هانز ريشنباخ — نشأة الفلسفة العلمية — ترجمة فؤاد زكريا — دار الكتاب العربى للطباعة والنشر — 1968 . ص.ص. 202 — 203 .

10 — G. Bachelard — Le nouvel esprit scientifique — P.U.F. 1934 p. 12-13.

11 — J. Ullmo — Les concepts physiques — in — Logique et connaisance scientifique — Gallimard 1969. p. 657.

12 — Bachelard — op cit. p. 10

13 — J. Ullmo — ibid. p. 658.

(14) — راجع الدكتور عبد الرحيم بدر — الكون الاحدب — ص 42 وبعــد .

15 — A. Einstein et L. Infled — L'évolution des idées en physique — Flammarion 1938 p. 91.

16 — G. Bachelard op. cit. p. 10

17 — Ibidem.

18 — H. Poincaré — La science et l'hypothèse — Flammarion 1902 p. 190.

19 — G. Bachelard — Le nouvel... p. 44

20 — Oppenheimer — Présence d'Einsteni — in — Science et Synthèse — Gallimard 1967 pp. 323-33.

21 — G. Bachelard — La valeur de la connaissance objective — Flammarion 1960 p. 192.

22 — Paul Césari — La valeur de la connaisance objective. Flammarion 1960 p. 192.

23 — A. Einstein — L'évolution des idées en physique — p. 258

24 — R. Blanché — L'aviomatique — P.U.F. 3è éd. 1963 p. 98

ترجمة الشعر

عيسى فتوح

هل نستطيع ترجمة الشعر ؟ واذا ترجمناه فالى أى مدى يمكن ذلك ؟ واذا ترجمنا الافكار فهل نحن قادرون على نقل الموسيقى اللفظية التى هى أهم عنصر من عناصر تكوينه ؟ من هنا جاءت صعوبة نقل الشعر من لغة الى لغة اخرى ، ذلك لان المترجم ، مهما سما بيانه ، وكان متمكنا من اللغة المنقول منها واللغة المنقول اليها ، فانه يظل عاجزا عن نقل الايقاع اللفظى ، والتناغم الصوتى .

واذا ترجم الشعر فهل يجب ان يترجم شعرا أو نثرا ؟ وايهما اصدق فى التعبير عن الاصل الشعر او النثر ؟ لا شك فى أن الشعر اذا ترجم شعرا ، بقى يحافظ على شىء من موسيقاه ، لكن تقيد المترجم بالوزن والقافية ، لابد أن يبعده عن المعنى المراد ، اما اذا ترجم نثرا ، فهو يفقد جانبا كبيرا من هذه الموسيقى ، أما المعنى فيظل قريبا من الاصل ، بسبب الحرية الممنوحة للناثر .

لعل العرب القدامى كانوا اول من ادرك صعوبة ترجمة الشعر آلى لغتهم ، فاحجموا عنها ، ولم يهتموا بترجمة روائع الشعر اليوناني او الروماني او الفارسي ، ولم يفسحوا لها مكانا في آدابهم ، في حين أقبلوا على ترجمة نراث هذه الامم في الفلسفة ، والطب، والفلك ، والرياضيات بنهم لا يرتوى ، باذلين في سبيل ذلك الجهد والمال ، فعرفنا عن طريق ترأجمتهم فلسفة سقراط وأفلاطون وارسطو ، لكننا لم نعرف الياذة هوميروس ، وانيادة فيرجيل ، وشاهنامة الفردوسي ، وروائع سوفوكليس ، وهزيود ، وسافو ، وهوراس ، واوفيد وغيرهم .

يقول الشاعر الانكليزي بيرسي شللي : «كل شعر سام لا يحد» . قد نزيح ستارا اثر ستار ، ولا نصل الى جماله الحقيقي ، فماذا يبقى لنا من الجمال الذى يعنيه الشاعر اذاترجم هذا الشعر ؟ وقال أيضا : الشعر ضرب من العبث ، ومن يحاول ترجمة شاعر الى غير لغته ، كان كمن يلقى بنفسجة في بوتقة ليكتشف أسرار لونها ورائحتها ، ونسيج العناصر التي تتكون منها فلغة الشعراء تظهر دائما بلون خاص وموسيقى لها صداها، وبدونهما لا تكون شعرا)) .

ويقول بول فاليري : ((الناثر يمشي مشيا ، والشاعر يرقص رقصا ، وهل يكون الرقص بلا وزن ؟ وأين الايقاع الذى ينفق الشاعر ساعات وشهورا لاحداثه اذا ترجمت شعره الى غير لغته)) ؟.

من هنا ندرك مدى صعوبة ترجمة الشعر حتى بالشعر ، فكيف اذا ترجم نثرا عاديا خاليا من اى قيمة موسيقية ؟ أفلا ينحطم الايقاع ، ويتلاشى الجرس ، وينقلب الرقص الخلاب مشيا رتيبا مملا ؟ لعل مارون عبود كان أكثر النقاد

تشددا في ترجمة الشعر حينما أشار الى ان الشعر لا يقاس بالترجمة ، وكل قطعة فنية في كل أدب تذهب بروعتها ترجمتها . خذ الشعر الجاهلي وترجم منه ما شئت ، ثم قل لي ماذا أبقت الترجمة منه ؟ وهذا هو القرآن الكريم ، ألم تفقده الترجمة شيئا بل أشياء من موسيقاه ؟ وهاك مثلا ترجمة المستشرق كليمان هيار لشعر عنترة ، فهو يقول ان عنترة هو القائل : «اننا ندور كما ندور الرحى على قطبها ، بينما سيوفنا تتفتت على رؤوس محاربينا» .

أعرفت أي بيت ترجم من شعر عنترة ؟ وهل بقي شيء يقال له شعر ؟

ان أغلب الشعراء الذين ينقلون الشعر انما يهتمون بالافكار ، ولكن متى كان الشعر افكارا فحسب ؟ وينظرون الى ما قال الشاعر ، لا الى كيف قال ، كأنما الشعر يقوم بمعناه دون مبناه ... ان فيه بالاضافة لذلك ، روحا وغنا وموسيقى وعاطفة ... فلو حاول نقلها لفشل ، وهبه استطاع ان ينقل كل شيء ، فهل بمقدوره ان ينقل الكلمات الموسقة ، والتعابير المنغومة ؟ .

ولو قارنا هذا المقطع التالي من شعر فرلين بترجمته العربية ، للاحظنا كيف اضطربت الموسيقى وتشوشت ، رغم الجهود المضنية التي بذلها المترجم ، ليخرج العبارة العربية بنفس مستوى العبارة الفرنسية :

التاوهات المتمادية	Les sanglots longs
لكمانات الخريف	Des violons
تجرح قلبي	De l'automne
بحزن رتيب	Blessent mon cœur
	D'une langueur monotone

فى الشعر لغة خرســـاء تتفاهم بها الارواح ، فهى كموسيقى (فندلســون) غير الناطقــة التــى يفــوق تأثيــر الحانهــا قوة الكلام ... الشعر والموسيقى روحان فى جسد واحد ، فحسب الموسيقى ما فيها من الشعــور ، وحسب الشعر ما فيه مــن النغــم ، وما من شــك فى ان نقل اى منهمــا خســارة كبيرة للآخر ... للموسيقى معنى لا يقل عن معنى الالفــاظ نفسها ، وهذا هــو السبب فى أن اللفــظ الرنــان يحمل فى طياته ايحائية غريبة ... يمتص الانفعالات الفائضــه ، والاحاسيس الخفيــة المبهمــة ، اذ كثيــرا ما تعجــز اللفظــة المجــردة عن حمل شحنــــات التوتــر الحــاد .

واذا قرأنــا قول الشــاعر خليل مطران :

عـــــودى يــا ليالــى امسنــا عـــودى

وجـــددى ذكـــر محـــــروم وموعـــود

لاحظنا كيف أن حروف المد استطاعت أن تفصح عن حسرة الشاعر ، حتى لكأنها صرخات أسى ، وحرقة ونــدم على ما فات ولن يعود ... فهل ثمة ترجمة قــادرة على نقل الجو المأساوى الذى أشاعته حــروف المــد المطلقــة ؟ .

يقول الان : «الشعر أخو الموسيقى ، بمعنى انهما نشــا معا ، بعــد الرقص ، فكان اتحاد الموسيقى والشعر». والشعر الغنائــى يشبه الموسيقى فى التكرار وترجيع القرار الذى يزيــد المعنى قــوة ، ويجذب الانتباه من السامــع الى الموضــوع الرئيسى ... وهو يشبه الموسيقى فى «دلالة الاصوات علـــى المعانــى ، بحيث أن السامع يفهم المعنى من الرنــة والوقع ، وان هو لم يفهــم الالفــاظ تمــام الفهم ، الا نحس بحركـــة الجــواد فى قــول امــرىء القيــس :

شهريار : لا ..

البوهو : أنت دمية من القش منصوبة فى الحقول ..

شهريار : لا ..

البوهو : تخيف صغار الطيور ولا تخيف الصقور .(ص 30 ــ 31)

فالبوهو هنا يمثل الشخصية / الواقع ، وهــو فى مقــابل الشخصيات التراثية الاخرى التى هى مجرد أنماط .. مجرد وظائف درامية فى اطار اجتماعى متدهور . وهى أيضا مجرد صدى .. مجرد جوقة لمطيل تعزف معه أغانى الغربة والوداع . أما رابعة فتلعب دورا وظيفيا آخر يتلاءم مع طبيعتها كأنثى تنتمى الى مجتمع هجين التركيب يساهم فى تقليص وعيها ، وتغليط مفــاهيمهــا :

ربــع : لن ابيعه نفسى .. (يقصد المخرج / النخاس)

رابعة : يالله .. هذا الرجل يهرب من المال . انت شؤم ياربيع . خرجت من الفقر واليه تعود .. (ص 55)

ان توظيف هذا النوع من الشخصيات التراثية فى المسرحية ، يدفعنا الى التساؤل عن كيفية تعامل برشيد مع التراث ، من حيث اختيار المواضيع منه ، وربطها بقضايا وهموم الانســان المعاصر . ان التراث ــ فى نظر برشيد ــ هو ذاكرة الشعوب . ((آنه ما كان وما هو كائن فى نفس الوقت ، وذلك لأن الماضى لا يتوقف عند حد معين ، كما ان الحاضر لا يبتدىء من نقطة معروفة . فهناك تداخل وتواصل بين الازمان .. فعندما أعود الى ذاكرتى الفردية أتواصل مع نفسى فقط ، وعندمــا اعــود لذاكرة الشعب فاننى بالضرورة اتواصل مع كل الناس الذيــن يقاسموننى هذا التراث ، فالمهم عندى هو ان أصل الى الاخرين من أقصر الطرق . وهل يمكن أن يتــم ذلك الا من خلال لغــة

مشتركة ، تمثلها رموز من التاريخ والاسطورة والحكاية والادب الشعبى ؟ » (1) لست ادرى هل سيصل الاخ برشيد الى هذا الاخر عن طريق قراقوش ، أو عطيل ، أو ابن الرومى ، او غيرهم، فالوجدان الشعبى لا يتعاطف الا مع النماذج التى تعبر عن مطامحها وهمومها . ويمكن ان نشير فى هذا المجال الى الكاتب المسرحى التونسى عز الدين المدنى ، الذى يستلهم من التراث ما هو الصق بالوجدان الشعبى ، وهذا ما تكشف عنه مسرحياته (ثورة صاحب الحمار ــ ثورة الزنج ــ الحلاج ...)

لا ننكر أن برشيد يتعامل مع جميع المستويات فى عملية اختياره للشخصية التراثية ، لكنه لم يلتزم فى هذا الاختيار بالمنهج السليم ، الذى ينتقد ، يحترم الخلفية التاريخية ، فى تقديم شخصيات المسرحية التراثية ، فهو لم يشر ، وبالاحرى أن يتعمق كالمدنى ، فى الكشف عن الاوضاع السياسية ، والاجتماعية التى اكتنفت هذه الشخصيات ، ولم يستغل الصراعات التى عاشتها والتى قد تكتسب صفة الاستمرارية ، فتعترض الانسان فى مسيرته الحضارية .

ان هذا التعامل الفج مع التراث ، لا يساهم فى تطوير وتاصيل الفن المسرحى عندنا ، ولا يخدم طبيعة المرحلة الحضارية الدقيقة التى تجتازها أمتنا العربية . « ولهذا فان قضية استخدام التراث تظل محفوفة بالمخاطر ، كما انها تظل مهددة فى نفس الوقت بالجمود ، ان لم تمتلك رؤية جديدة تكشف عن الاعماق الثرية لهذا التراث »(2) فليس كل التراث صالحا للاحتفالات المسرحية . فهناك ما يصلح فقط للفرجات الشعبية ، ويبقى استخدامه محصورا .

ومع ذلك ، تبقى قراءة برشيد للتراث قراءة ذكية ، فيها

---

(1) تجربتى المسرحية ..) حوار مع برشيد ــ العلم الفنى ، يوليوز 1976.
(2) زينب منتصر ــ مجلة أقلام ، ص 33 ــ ع 7 ــ نيسان 1977 .

كثير من التصرف .. قراءة تنم عن موهبته الفنية فى ميدان البناء المسرحى ، فشخصية عطيل – مثلا – تجسد عند شكسبير مأساة الخيانة ، والشك فى زوجته ، التى أوحى به صديقه ياجو، وينتحر عطيل بعد أن يخنق زوجته البريئة ، وبعد أن يكتشف خيانة ياجو ، فى حين أن مسرحية برشيد تبتدىء من حيث انتهى شكسبير ، فعطيل برشيد يدخل المسرح وهو يجر وراءه أنيال الآلام ، وتعتصر قلبه لوعة الجريمة وأشجان الخدعة ، فقد صنع مصيرا تراجيديا لاهل قريته وأحبائه بايعاز من المخرج / النخاس.

وينتهى الحدث فى مسرحية برشيد بموت المخرج / ياجو ، لا بموت عطيل كما هو الشأن عند شكسبير .

ويستغل برشيد ما يسمى بالمفارقة الشعرية ، التى يتوسل بها عادة لتجريد الواقع من أجل تركيبه ، ويلون هذا النوع من الاسلوب المسرحية بلون خاص ، ويكسبها نكهة متميزة :

عطيل : يا أيها الحمام المحلق فى عينى . يا رسولا جئت الى بغير رسالة ... يا أيتها الايام الخرساء . يا أيها الجدب الذى أورق فقر التعساء ... يا ايتها الملائكة خذينى حيث لا نور لا ضياء . خذينى الى مدن الصمت . خذنى يا قلبى المكلوم. يا أيها المذبوح فى محراب التعاسة . كيف لا يطير بى طائر الرخ الى جزر النسيان ؟ » (ص 8)

فاذا كان شكسبير تستغرقه عمليات الغوص فى الجوانب السلوكية ، فان برشيد يحاول أن يضفى على مسرحيته طابعا انسانيا ، وهو التحرر من الهيمنة الخارجية .

ولكن هل سيحقق هذا التحرر دوره فى كرنفال برشيد ؟

أن احتفالية هذا الكاتب ، وهى تحقق وجودها على خشبة المسرح ، وامام اعيننا ، تقع فى مغالطة ، لما تعطى الاسبقية

تحس على العقل . تقول الاحتفالية : ان الاحساس بظلم الواقع يؤدى الى التحرر ، فى حين أن المعادلة الصحيحة هي — على حد تعبير (بيرنارد دوريت) أن الوعى بالمتناقضات يؤدى الى التحـــرر .

ولا نعدم هذا الوعى عند بعض مسرحيينا العرب ، أمثـــال سعد الله ونوس الكاتب السورى المعاصر ، الذى وعى هــذه المعادلة فى تجاربه الاخيرة التى يدعوها ((مسرح التسييس)) .

ان تجربة ونوس الابداعية فى الميدان المسرحى ، قد مرت بمرحلتين : مرحلة التجريب للاشكال التغريبية الجاهزة ، والاغراق فى التجريد ، واستخدام الرموز . وفى هذا الاطار يمكـــن ادراج مسرحيته المطولة ((حكاية جوقة التماثيل)) وهى حكـــاية البطـــل المطرود المقهور على المستويين الداخلى والخرجي . فقد كان التركيز فى هذه المرحلة على الفرد ، الذى تتحقق فيـــه صفـــة البطولة ، وتتمثل فيه بعض سمات البطل الاشكالى .

أما استلهامه للتراث ، فقد كان يتساوق فى هذه الفترة مع نزعته التقليدية ، ومن هنا كان اتكاؤه على قصة هابيل ، وأسطورة أوديب ، تدعيم هذه النزعة ، ويتجاوز ونوس الاشكال الرمزية والقوالب الجاهزة ، ويدخل فى مرحلة ثانية ، ليمـــارس عملية تجريبية جيدة بشكل واقعى .. مرحلة تعتبر امتدادا ناميا لسابقتها .. امتدادا يتسم بعمق الرؤيا ، وبواقعية المعالجة . هذا التصور الجديد لمجريات الاحداث ، جعله ((يخرج من قلب الانســـان وبعيدا عن عذابه الداخلى والمادى كفرد ، أو كرمز الى الاسباب الموضوعية ، والواقع الانى ، أو التاريخى الذى يسقطه بشكل واقعى .. مرحلة تعتبر امتدادا ناميا لسابقتها .. امتدادا يتسم بعمق الرؤيا ، وبواقعية المعالجة . هذا التصور الجديد لمجريات الاحداث ، جعله (يخرج من قلب الانسان وبعيدا عن عذابه الداخلى

والمادى كفرد ، أو كرمز الى الاسباب الموضوعية ، والواقـــع الآنى أو التاريخى الذى يسقطه بشكل واضح على العصر .»(1) وتندرج فى هذه المرحلة أعماله « حفلة سمر من أجل 5 جزيران » و « الفيل يا ملك الزمان » و « مغامرة رأس المملوك جابر » .

وهذه الاعمال الثلاثة أتت زمانيا بعد نكسة 67 التى فجرت فى الكاتب ينابيع الابداع ، وخلقت فيه ما يسمى بالوعى الجمعى ، مما جعل نتاجه فى هذه المرحلة ، تنعدم فيه ظاهرة البطل ، لان وجود هذا الاخير معناه وجود تناقض مع الجماهير « لان معناه أن الفرد انسلخ عن المجتمع واغترب عنـــه » على حـــد تعبير منى سعد أبو سنـــة .

وعلى هذا الاساس ، فهو يقدم لنا الانسان كمجموعة من العلاقات الاجتماعية ، كوحدة متناقضات تتغير مع الاحداث .

هذا المفهوم الديناميكى للانسان الحى المتطور ، يتناقض مع منظور أرسطو لهذا الكائن ، الذى يعتبره كذات مجردة ، تحركه اهتمامات ميتافيزيقية ، (تحدى القدر)، ويلقى بنا هـــذا المفهوم الجديد لموقع الانسان فى حلبة الصراع الاجتماعى ، يلقى بنا فى حقل المسرح السياسى البريختى .

فقد استوعب سعد الله ونوس جيدا هذا النوع من المسرح الثورى واستفاد منه فى تجربته الرائدة لتأسيس ما أسماه بـــ « مسرح التسييس » . ويشرح لنا ونوس هذه التجربة فى مقدمة مســـرحيتـــه « مغامرة راس المملوك جابر » :

« .. وأحدد بسرعة مفهوم هذا « المسرح » على أنه حوار بين مساحتين . الاولى هى العرض المسرحـــى الذى تقـــدمـــه جماعة تريد أن تتواصل مع الجمهور وتحاوره . والثـــانية هى جمهور الصالة الذى تنعكس فيه كل ظواهر الواقع ومشكلاته

(1) فريدة النقاش ـــ مجلة الهلال ـــ ص 80 ـــ ع : 7 يوليوز 1971 .

.. وحتى الان لا يزال هذا الحوار صعبا . فمن جهة ، هناك التقاليد المسرحية المبنية على الغاء مثل هذا الحوار أو اقامته بصورة غير مباشرة وضمنية . وهناك أيضا ــ وهذا أهم ــ طبيعة المتفرجين انفسهم وموانعهم الداخلية التى تحول بينهم وبين مباشرة الحوار .. » (ص 41) فونوس اذن ، يسعى بهــذا الاسلوب المسرحى ، الى تثوير الواقع المهترىء ، والى التعرية السياسية ، التى تقود المتفرج الى الوعى بمشاكله ، وتدفع به نحو البحث الجاد عن وصفات لازمانه .

فبعد مسرحيته التقدمية « حفلة سمر من اجل 5 حزيران » التى تدخل فى هذا الاطار ، التى يعتبرها النقد صرخة سياسية جريئة ، تخرج عن نطاق تبرير الهزيمة ، لتحفز على الوعى السياسى وتحرض على العمل الثورى . وبعد تجربته « الفيل ياملك الزمان » التى تؤكد على أهمية التوعية الشعبية ، تأتى مسرحيته الهامة « مغامرة رأس المملوك جــابر » لتركــز على ضرورة الالتزام بالخلق السياسى .

تحكى المسرحية الاخيرة عن واقعيــن : واقع معــاصر ، يجسده زبناء المقهى ، الذين يرتادونه ليلا ليفرغوا فيه همومهم المتراكمة ، وليستمعوا من حكايا عم مونس الحكواتى ، ما يخفف عنهم عبء القهر الاجتماعى ، والسياسى المسلط عليهم .

فعم مونس هنا لا ينحصر دوره فى الربط بــين حلقــات الزمن ، بل هو رمز للتاريخ ، الذى تجد فيه الفئــة الشعبيــة عزاءها فى الحاضر المأزوم ، غير أن الحكواتى كان غالبا ما يخيب رغبة هذه المجموعة ، فى الاستماع الى قصص البطولات والامجاد، بل كان يصطدم شعورهم حين يفتح أعينهم من جديد على واقعهم المــأســاوى :

زبون 1 : اقلب صفحات كتابك يا عم مونس ، وافتح على سيرة (الظاهر بيبرس)

الحكواتى : .. الحكايات مربوطة بعضها ببعض . لا تاتى واحدة قبل الاخرى . سيرة الظاهر تجيىء دورها عندما نفرغ من قصص الزمان الذى بدأنا حكايته .

زبون 2 : اى زمان !

الحكواتى : زمان الاضطراب والفوضى .

زبون 2 : هذا الزمـــان نعيشـــه .

زبون 1 : نـــذوق مرارته كل لحظـــة .

زبون 3 : فلا أقل من أن ننسى همنا فى حكاية مفرحة .

زبون 2 : حكاية البارحة كانت كئيبة يسود لها قلب السامع .

(ص 52 ـــ 53).

ويتداخل هذا الواقع المعاصر بشكل جدلى ، مع واقـــع آخر تاريخى ، تحدد ملامحه حدوتة عم مونس ، التى تحكى عن صراع كان قائما بين الخليفة المقتدر بالله ، ووزيره العلقمى ، فى عصر « كالبحر الهائج لا يستقر على وضع »» وكان الناس فى معزل عن هذا الصراع السياسى ، لا يعرفون أسبابه ، ولا يسهمون فى حسمه لصالحهم ، بل يكتفون بالتفرج على ما يدور حولهم ، حتى يأمنوا بذلك شر المتناحرين على السلطة . ويتأزم الموقف بين الخليفة والوزير ، ويشاع بين الناس أن هذا الاخير يريد آخراج رسالة ، من بغداد المحاصرة بجيش الخليفة وأعوانه، ولكنه لا يجد وسيلة لتحقيق هدفه .

وتبرق فى ذهن المملوك جابر فكرة خارقة ، يطير بها الى سيده الوزير ، ليقترحها عليه كحل للازمة ، وهى أن يحلـــق شعر رأسه جيدا ، ثم يكتب عليه الرسالة ، وبعد أن ينمـــو

الشعر ، ويغطى نص الرسالة ، يمكنه آنذاك الخروج بها الى حيث يريد .

ولم يكن جابر يطلب مقابل عمله ، سوى نيل حريته ، والتزوج بزمردة جارية الوزير . بعد أيام من الانتظار قضاها فى غرفة مغلقة ، انطلق جابر الى بلاد العجم يحمل حتفه تحت فروة رأسه :

((من الوزير محمد العلقمى الى بين أيادى الملك منكتم .. نعلمكم أن الوقت حان .. وفتح بغداد صار بالامكان . . . فجهزوا جيوشكم حال وصول الرسالة اليكم ... وكى يظل الامر سرا بيننا اقتل حامل الرسالة من غير اطالة .)) (ص 163 — 164) .

ولكى يحقق ونوس ما يحلم به من مسرح ، تشترك فيه الصالة عبر حوار غنى ، ومرتجل ، يختار المقهى لعرضه المسرحى ((والمقهى ليس مكانا للحدث المسرحى ، بل هو المسرح نفسه خشبة وصالة . والجو الذى يسوده له دور صميمى فى المسرحية)) (1).

وهكذا يحقق ونوس أهم عمل درامى ، متوسلا فى ذلك بالشكل الشعبى ، الذى يسهم فى خلق التواصل بين عمل الفنان، وجمهوره . وهذا الشكل الذى يقترحه الكاتب ليس صارما ، بل هو من المرونة ما يجعله ((لا يلتصق بهذه المسرحية فقط ، وانما يمكن التوسع فيه واستنفاد امكانياته فى أعمال كثيرة)) (1) .

ويستغل ونوس هذا الشكل المسرحى ، لتوظيف التاريخ القديم ، الذى تلتصق احداثه بوجدان الجماهير ، وتنعكس آثاره على حياتنا المعاصرة . ان هذا النوع من الاتكاء على التاريخ لا قيمة له فى ذاته عند ونوس ، وانما قيمته ((فى مدى

---

(1) مقدمة مسرحية مغامرة رأس المملوك جابر : عبد الله ونوس ، ص 44 — 45

عمقه من حيث المضمون ، ومنطقية ترابط الاحداث والشخصيات فى سياقها التاريخى من حيث الشكل .. » (2) .

فاذا كان برشيد ، يسقط الماضى على الحاضر فى مسرحيته التراثية « عطيل والخيل والبارود » فان ونوس يعكس المعادلة ، فيسقط الواقع على التاريخ . وفى مسرحيته « مغامرة رأس المملوك جابر » نلمس هذا الاسقاط الذكي من خلال تلك الحدوتة التى تعكس الخلفية التاريخية لشخصياته ، كما تعكس واقع المتفرجين وموقفهم من الصراع الدائر حولهم . ان المسرح عند ونوس كما هو الشأن عند بريخت تخلى عن دوره السحرى واصبح نقديا ملتزما ، فهو لم يعد يسمح بالاندماج الكلى بالمشهد، ولا بالتوحد بالبطل ، وذلك حتى يبقى المتفرج مستقلا نسبيا عن الحدث ، وحرا فى أتخاذ موقف من القضية المطروحة امامه .

وتأتى مسرحيته السابقة لتؤكد على هذه الظاهرة ، حيث تتدافع من الزبائن تعليقات على الممثلين :

الرجل الرابع : فوق رؤوسنا يتعاركان (يقصد الخليفة والوزير) .. فوق هذه الرؤوس البائسة ستنزل أقسى الضربات .. اننا نتخلى عن رؤوسنا . نسلمها الى الجلادين ، وأسوأ من الجلادين .

زبون 1 : أنتبهوا .. يحرضكم على الفتنة .

زبون 3 : نوع من الرجال يحب اثارة المشـــاكل ، لكى يتفـرج بعدئذ على المشاكل . (ص 83).

... المجموعة : (تقلد طريقته فى الكلام) وحق الله فكرة . لك راس كسائر الناس . فافعل به ما يحلو لــك .. واترك رؤوسنا لنـــا . (ص 84).

---

(2) جريدة الثورة — عدد : 3182 — حوار مع سعد الله ونوس .

ويقدم لنا ونوس الرجل الرابع فى الحدوتة ، كشخصية ايجابية ، تساهم فى تحريض الناس على التغيير ، وتلتزم بنشر الوعى بين جموع سلبية يتحكم فيها منطق العجز والخوف والذى يترجمه شعارها فى الحياة ((من يتزوج أمنا نناديه عمنا)) .

ان هذا الرجل الذى يقابله فى المسرحية الزبون الرابع ، يشجب هذا السلوك من عامة بغداد ، لانه يأبى عيشة الكلاب، ولا يجب أن يدفع راسه ثمنا لاضطراب لا راى له فيه . وحينما يحاول هؤلاء العامة أن يصرفوا عن التفكير فى شؤون السياسة ، ويهددون بالسجن ان تمادى سلوكه يعترف :

الرجل الرابع : اى وحق الله قضيت فترة ليست قصيرة فى السجون ، ومع هذا فقد ازددت يقينا بأن ما تقولونه لا يقود الا الى ما نحن فيه ، نهترىء كالنفايات .. ونجرى قلقين كالكلاب الملدوغة ، وندفع ضريبة خلافات لا نعرف أسبابها ولا مغزاها .

المرأة الاولى : تلك قسمتنا .

الرجل الثانى : ستعود حتما الى السجن (ص 81)

ان تاكيد ونوس على سلبية هذه الجموع له مبرراته ، فهو يكشف عن مستوى الوعى الذى تردى فيه الانسان الشعبى العربى بعد هزيمة حزيران .

وحين يركز الكاتب على المواقف السلبية ، فلانه يريد بذلك أن يصدم هذا الانسان بواقعه ، ليذكره بمصيره الاجتماعى والانسانى ، ويحفزه على الجدل ((فولادة الجدل فى المسرح يعنى بداية جديدة لوعى الجماعة ومدركاتها لمصائرها اليومية والمستقبلية)) (1) .

---

(1) ناجى المعمورى — مجلة الاقلام — ص 53 ، العدد 12 ، السنة 1974

ان قناعة ونوس الايديولوجية ، تفرض عليه أن يتعامل مع الفئة الشعبية ، كأفراد ينتمون لواقع له مواصفاته ، وتتحكم فيه قوانينه . وهم بهذا الاعتبار لا يملكون تغيير الواقع ، الا باندماجهم مع الجماعة ، فى اطار وعى تاريخى ، يحدد مواقعهم فى الصراع، وأدوارهم فى المجتمع . ف ((لا أحد يستطيع أن يحرر نفسه أو يحرر الآخرين ، الناس يتحررون جماعيا)) (2).

وعلى هذا الاساس ، أختفت فى المسرحية بطولة الفرد المؤثرة فى سير الاحداث ، والمنعكسة فى سلوك الجماعة ، وان كنا نجد فى شخصية المملوك جابر ملامح البطل النقيض ، الذى كان الضحية بسبب افتقاره الى الموقف الفكرى الواعى ، والمنهزم فى الصراع بسبب فورة عاطفية جامحة ، فهو لم يفكر قط ، حتى فى مضمون الرسالة التى كان يحمل فيها مصيره ، بل كان تفكيره منصرفا الى المكافاة :

زمرد : هل تعرف ما تحتويه الرسالة ؟

جابر : وماذا يعنينى ما تحتويه الرسالة ؟ لا شك أنها مليئة بالحماقات ، أعرف كيف تكون مراسلات الحكام ، ولكن ليكتب ما يشاء. تعنينى المكافاة لامحتوى الرسالة .(ص 136)

ولم تكن هذه المكافاة ، سوى تجسيداً لطموحات جابر نحو حياة حرة كريمة ، ينتفى فيها قهره واستغلاله .

وانطلق هذا الاخير ينتهز الفرص ، من أجل تحقيق أحلامه ، ولم يكن يعنيه ما يجرى فى بغداد ، ما دام هو الرابح فى الاخير :

جابر : يستطيع الوضع أن يتعقد ، ويضطرب حتى يصبح كمياه دجلة ، ولكن بعيداً عنى . (ص 60).

ان جابر كشخصية مركزية فى المسرحية ، يرمز بها الكاتب

---

2 :ولوريز — مجلة الاقلام ، ع : 3— أبريل 1978 — ص 80 .

الى الانسان العربى المقهور اجتماعيا وسياسيا ، والذى لا يستطيع أن ينال حريته الا بتبنى قيم الاثره ، ولا يقدر على التواصل الا بانتهـاز الفـرص .

ان القهر الذى يكابده جابر اجتماعيا وسياسيا ، انعكس ايضا على جانبه العاطفى ، فهو مقموع جنسيا ، تثيره الجارية زمرد حين تتثنى بجسدها ، وتغريه لما تعده بالوصال ، الذى كانت تحرص على عدم تحقيقه ، وهى تجسد بهذا النوع من السلوك ، طبيعة المرأة العربية ، التى تمتزج عندها رغبة الوصال، بسلوك التظاهر بالتمنع ، والزهد فى الرجل :

جابر : .. آه .. من هذه البنت يا منصور . لها طريقة لا تجارى فى رواية الاخبار . (يؤدى مع الكلام حركات تمثيلية) تغمز، وتضحك ، ويتثنى جسدها مع الكلام حتى يغلى دم السامع، فى كل مرة أراها تجعلنى أخور كـالثور . انهـا محنكـة كسيدتهـا . تمنينى بالوعود ، لكنها لا تتـرك لى سبيـلا للـوصـال . (ص 59 — 60) .

ان تعلق المملوك جابر بالجارية زمرد ، كان يوهمه بامتلاكها، ولهذا فهو لا يريد أن يشاركه أحد فى هذا الامتلاك :

زمرد : اواثق حقا انه لا خطـر عليـك ؟

جابر : هناك خطر واحد فقـط .

زمرد : (بلهفة وجدية) مـا هـو ؟

جابر : أن تبالغى فى التثنى حين تسيرين فى ارجاء القصر . لو فعلت فسيكتشف الوزير نفسه ان لك اليتين تتلاحق لهمـا الانفـاس . . كانى أراه .. سيتناول نشوقه ويسرقك الى مخدعه . حينئذ لن يبقى للمسكين جابر الا أن يمـوت كمـدا .

زمرد : (باسمة) متى تتعلم الحشمة !

جابر : كل هذه المفاتن أمامى ، وتريدين أن أحتشم ! (ص 137 — 138) .

ان هذا النموذج الفردى عند ونوس ، يجسد الانسان العربى ، بكل ما تتنازعه من رغبات واهواء ، فى مجتمع تساهم مؤسساته القمعية فى ممارسة الضغوطات على أفراده ، وتعمل على توجيه سلوك هؤلاء ، وجهة تخدم مصالحها ، وتكرس وجودها .

ولعل اقتراب جابر من عصرنا هو ما يفسر تعاطف الزبناء معه ، واحتجاجهم على سوء مصيره :

زبون 3 : يقطعون رأسه بعد كل ما فعل !

زبون 2 : لا يجوز .

زبون 1 : ماهذا الجزاء !

... زبون 3 : ينبغى أن ينال ما تستحقه فطنته . (ص 162).

وهكذا يحاول ونوس أن يضفى على جابر بعدا معاصرا ، ويجعل ماساته تمتد لتشمل مستقبلا قادما ((لان الفرق بين صورة البطل فى التاريخ ، وصورته فى التراجيديا هو الذى يمنحه هذا الحق فى أن يلقى بظله على عصرنا . انه يهزم فى التاريخ ، ولكنه يمنحنا فى التراجيديا — رغم هزيمته — أملا فى الانتصار كما قال سامى خشبة)) (1) .

وفى الوقت الذى يستنكر فيه الزبائن نهاية جابر المأساوية ، ولا يستنكرون خيانة الوزير للقضية الوطنية ، حين استعان بالافرنج ليحسموا نزاعه مع الخليفة من أجل السلطة ، فى هذا

(1) ناجى المعمورى — مجلة الاقلام — ص 59 ، ع 12، 1974 .

الوقت ، ينتصب الرجل الرابع من بين أكوام القتلى ، ضحايا التدخل العسكرى الاجنبى فى بغداد ، ليضع مع الحكواتى وزمرد القضية فى اطارها الحقيقى ، وليلقوا تبعة ما وقع من أحـداث على مواقف الجماعة السلبية :

المجموعة : اذا هبط عليكم ليل ثقيل وملىء بالويل

لا تنسوا أنكـم قلتـم يومـا

فخـار يكسر بعضه .. ومن يتزوج أمنا نناديه عمنا .

وهكذا نرى أنه رغم التطورات التى طرأت على الدراما منذ الاغريق الى اليوم ، فان كتاب المسرح المعاصر ما زال الكثير منهم تستهويه النهايات التراجيدية ، والمواقف المأساوية ، فونوس يجعل مصير الملوك جابر مفزعا ، ويأبى برشيد الا أن يخلق عنصر الفاجعة حين يجعل من عطيل ، ضحية خدعة أودت بحياة أهله وحبيبتـه .

لكن هذا العنصر التراجيدى يعكس فى المسرحيتين السابقتين منظورين أيديولوجيين مختلفين ، فونوس ينشد فى عملـه تغيير العالم قبل تغيير الانسان . وحين يحاول لبطل جابر أن يعكس المعادلة بالسعى لتحقيق وجوده الاجتماعى أولا من خلال البديل الذى اختاره لنفسه ، يعاقبه العالم الذى تتحكم فيه مواصفات تراجيدية بمصير مأساوى ، تستشاط له زبناء المقهى غضبا .

وعكس ونوس يؤمن برشيد بأن تغيير العالم يتم عن طريق تغيير الانسان . وهذه القناعة الفكرية جعلته يعتقـد أنه حـرر العالم التراجيدى من خلال عطيل الذى توهم أنه جعل حدا لعهد الارتزاق والاستعمار بقتل ذلك النخاس المتخفى وراء قناع المخرج .

القنيطرة : المسناوى أحمد

قال البحر

الى نهيدة مغربية .

عبد الرفيع جواهرى

كيف الوردة تغدو فى جسد المطر رصاصه ؟
كيف الغصن يسافر فى الرمح وكيف الضفة تنبت سيفا ؟
واشار دمى للتابوت
هذى عاشقة اخرى
وجناح ينهد على طرقات العشق
فتقبل منا ... ياوجها يغرق خلف غمام الدمع
يرفع جفنا نحو الشمس وجفنا نحو الجرح
ويشير الى مراكش

* * * *

وارتاح على الاكتاف دمك .
وسرت فى رحم الاطلس نطفه

ذاك النهـر الماشـي فى أوردة الاطلـس مازال يغنـى
قـال النهـر : غـدا نولـد طفلـه

* * * *

يـاسطـرا فـى دفتـر جـسـرح
هـل تقـرأ جـرحـي ؟
يادمـي ... هذا سهـا والخنجر واحـد
مـن يشـرب هـذا الكـأس ؟
يادمـي يتوحـد فينـا الخنجـر
نتفـرق فـى الافـاق جـراحـا
يادمـي قـد شتتنـا وهـج العشـق قبـائـل
غير أنـا يجمعنـا أن هـذا الدم يرفـض ان يصبـح مـاء

* * * *

خلـف الافـق يلـوح شـراع
ويـد مـن تحـت المـوج ... أيـادى ترفـع رايـه
والشـاطـىء أيـن الشـاطـىء ؟
مـن يبحـر نحـو الـزورق ؟
قـال البحـر :
مـن يبحـر وحـده يغـرق .

مراكش : 1978/5/11 .

المجنون فى ملفات العشق - الوطن

علال الحجام .

---

(1)

يتزلزل من تحتى الكرسى
يتزلزل فى كفى القلم
فالدرس كؤوس تقرع فى الامس
وانا فى الساحة مقصلة ودم
الجثة فى عصر أصمت الموقوت
بلا رأس
لا كان الصوت اذن أو كان فم
عفوا

انا ارفض شنق الكلمة فى شفتى قهــرا

والكلمة تشرق حين تصير بوهج شرارتها بحرا •

(2)

وانا فى عصر الذعر اعود اليك بلا جوهر

ذ نبنى الذكرة الحبلى بوليــد القهــر

ضيعت دروس الامــس

لان الحب الاحمر ضيعنــى

فى سحر عيونك خلف الدمعة والقضبــان

وها أنت بقية وأنا أتقدم منتعــلا

شـــوك الاصـــــرار

أغالب بحرا ظل يفرقنــا من فرط الصبوة والتحنــان

ــ فلنشرب هذا البحر اذن من أجل مناعات اللقيا

ــ آه ليلى ••• بينى فى بيــد الحب وبينك حقبة جــوع

تلبــس غــابــات الصلبــان

ــ ومسالكها فىء ونعيــم فى الدنيــا

ــ ليكن ، ليكن ••• فمسالكها قداس النفس امن يحيا ••!

(3)

ــ ••••••••••••••

ــ استـــاذى معــذرة . . .
اتذكــر أتذكــر من علــم الازمـــان
الم الانســان
فيجافى بين العيــن وبين النــوم
ويكســونــى سهـــرا
ورحيــلا يصبح لــى قــدرا !

(4)

آه ليلــى
لغموا طرقات الوصل بنــار الفصل
وقلت : النخل يظللنى من قيظ الصيف
فاضحى قارا يطعم جــوع النـــار
فهو مسوخ ، يمنح تمــره لاغــربــان
ويفضل كلب الصيــد على الانســان

(5)

ــ ضيعت دروس الامس لان الحب الاحمر ضيعنى
ضيعت دروس الامس سوى درسين :
الفــاعــل
والمفعــول

الغالب مضغطـة فى الليـل جحيميـه
ـ أصمـت يـا عـلاء...
ـ .... والمغلوب دماء فى الساحات
ترى حنجـرة السادات الظـالميه
أتذكـر مـا كتبتـه قلـوب الاهـل
على جـدران البلـوة فى الديجـور

سـر المأساة :
القاهر والمقهور

وأنا مقهـور اعرف طعـم البـؤس
وضيـق الرمـس
لى وجهى : الحق
وأرفـع رأسـى للشمـس
لى وجهـى : الحـق
ولى سحنتى : أعـراق الجمرة فى شفتـى
حتى فى القبـر اغـالبـه
فتحفـظ شعـر جهـابـذة الفجـاره
لكنى لا أدرى ...
أتصفح سفـر صعـاليـك الاكـواخ
على رف الـزمـن المنهـار

فاســـائــل طعنـــاتــى فى آلسر وفى الجهـــر :
هل كـــان لهم وطـــن فى غـــابـــات الشعـــر ،
أم جـــردوهم من حـــق اقامتهـــم فى الظلمـــة
قاضى الحكمة وهو يطل علينا من شرف الذعر !؟

ع. الحجـــــــام .

سودوم

سمعلى سعيد أحمد

غلقت الريح نوافذى . . . شبابيكى

واوصدت فى وجهى الابواب

من ذا يطير الى السحاب ؟

من ذا سيصطاد الغراب ؟ !

ترتجف الشمس . . . تنهار سوارى النور ،

تنهار سودوم فيا عشاق الدم ، والقتل ،

والموت ، وقطع الحلمات

متى سيزهر النبات

؟ .... !

هل مر سليمــان من هنــا

هل بصر القتل وقطــع الحلمات

هل أبصر فقأ العيون ، واغتصاب الرجل والمرأة معا ؟

هذه سودوم الجديدة التى استشهد ابناؤها

هذه سودوم التى يعذب ، ويذبح اطفالها

هل مر سليمــان من هنــا

يــا اللــــه ! ! !

؟ .... ؟

ظلــت تعــانقنــى وتمتــص دمــى

ســاحــرة مجهــولــة الــرســم

مجهــولــة القســمــات

تــوزع الدمــوع عبــر القنــوات

تبكــى صـغيرا ضاع فى شوارع ســودوم

فى ليلـــة ليــــلاء

وبكــت الســاحــرة العميــاء

ضاع الصغير ، ويل هذا الزمن المخصى ، وويل الجبنــاء

ظلت تعانقنى ، تعانقنى ، وتمتص الدمــاء

طـــار سنـــونـــو فى الفضــاء

الا ابشــرى يــا قريتــى

جـــاء الشتـــاء

....

اللعنــة ســـودوم

هذا الدم الحلم الذى يأتى بلا انقطاع

هذا السنونو ... هذه الساحرة المشدودة لهذه البقاع

متى سيسقــط المطــر

وتتقصــف الــرعــود

وتتقصــف الرعــود

يــا حلــم بــدر هــل هــو الــدم ،

م يــاتــرى جــوع العــراق

حيــن انتشــر الاطفــال ثم هللــوا

مطــر مطــر

مطــر مطــر

اللعنــة ســودوم

هذا الذى لاينتهى كيــف تــرى أنهيــه

وســوره يحميــه

متــى تــرى ينهــار ســوره ، متــى ينهــار

اللعنــة ســـودوم

كثــر المهــرجــون

جــوعى يتضـــورون

لكنـــهم رغمـــا يمثلون

وهى تعـــانقنى ،

تمتـــص مـــن دمـــى

طـــار السنـــونـــو يتحـــدى الحدآء

انـــه يشتهـــى السمـــاء

يبغـــى الفضـــــــاء

....

تردد فى عمق أعمـــاقى الصـــدى

قـــالت بصوتهـــا المـــدوى كالـــرعـــود

جئتك من خلـــف اللحـــود

مـــن خلـــف أنقـــاضى

أحمل كـــل المـــاضـــى

قد جئتك محلـــولـــة الشعـــر

لم استحـــم .. لم اتعطـــر

جئتـــك احمل المعاول والفؤوس

آن لهذا السور لن ينهـــار

حلق فى الاجواء طائر السنونو يحمل البشرى الى الله

....

يا أهل سودوم التي سكنت حنايا القلب

فى آخر الليـــل يطيب لكــم السمـــر

تحلو مواويل الجوع والفقـــر

والجنـــس والقهـــر

لا يفلح الشتـــاء فى غسل الجبـــاه

انـــا جميعـــا فى انتظار الصبـــاح لكن

متـــى نـــراه

هلا تردد الصـــدى فى عمقكـــم

هل حلت الســـاحرة العميـــاء بالخيـــام

هل وجـــدت صغيـــرهـــا

يبحث عن طريقه وســـط الظـــلام

هل أخبـــرت ان الشتـــاء قـــادم هذا العـــام

سمعلى سعيد أحمد

وجوه متعددة في مراة منكسرة

اقصوصة

البحتوري محمد

---

1 ــ حرباء :

وأنت تسير وحدك ، تقلقك حالة الشارع المترامى أمام عينيك ، فتقول فى نفسك :

ــ ايــ شارعى أعبرك وانت تغلى بصمت ، أتقول ما عندك او لا تقول ؟ الى متى تظل تلف جوفك بهذا الغموض والتناقض ؟، اغلب عبريك يهزلون باستمرار ، تفرسهم الكآبة ، يقتات من وجوههم التجهم . الا تتقيا يا شارعى الخبث الذى يسبب لك فى الغثيان والدوران ؟ .

وتبحث عن نفسك فى وجوه عارفيك ، ونظراتهم ، وابتساماتهم المزيفة . لكنك تفاجا بانك قد تلاشيت نهائيا ، ولم يترسب منك هنا الا الرماد ... الريح تنفخ فى الرماد وتلعب به

... دبت كازبد فى الرمل خلف الموج، المرتدة مباشرة بعد اذاعة النبأ . وتسأل نفسك من جديد وإحساسك يصعد كالاسى . كالدخان ، كالبخور المحترق ، كاللهيب من الجمر :

ـــ لقد اذيع النبأ وفيه اسمى من بين الفائزين ، كنت اظن اننى ساصبح نجما بعده ، لكن ها انا اجد العكس ... هل كنت مجرد واهم مخدوع فى تصورى ؟ .

تسير فى خطى ثقيلة كأنك تقتلع خطاك من الوحل على ناصية الشارع ، تطرد الذباب الذى يتجمع حولك ، لا تستطيع أن تنظر الى أعلى ، وكأنك جذع نخلة مقطوعة اغصان سعفه ، تدفعه العاصفة فى أرض الرمل ، الست أنت الذى كنت دائما محفوفا باصدقائك ويرهقك تصافح الايدى ورفع رأسك للذين يحيونك . لكنهم لماذا انقلبوا عنك الآن فجاة هكذا ، كان جميع اوصالك بهم قد تقطمت ؟. وتتذكر جلسة الصباح فى مقهاك الذى ترتاده دائما بين صفوة اصدقائك حين قلت لهم بالحرف :

ـــ الناس يتقلبون كاحوال الطقس ... اينما رأوا منفعة يذهبون كالكلاب وراء الرائحة الى الازبال .

وحين انهيت كلمتك تفرست فى وجوه الاصدقاء المحيطين بك حول طاولة المقهى ، تبحث عن صدى كلامك ... ثم اشحت بوجهك عنهم فتاملت حركة الاشياء والناس فى الشارع من خلال الزجاج ، وبدا عليك التذمر من هذه الحياة وهذا الزمان المضطرب ، واصلت سخريتك من كل من يمر امامك ... فى نظرك الناس يقتاتون السخافة ، يحيون التفاهة ... ظهورهم الى الناشر والكاتب ... وكان الشارع مغطى بغبش الرؤيا ، محاطا بالعمارات الشاهقة ، اسفل الممرات وجاهات الابناك والمقاهى ... البعض يدخن ويسبح فى الخيال ، البعض يكتفى

بالتفرج ، والبعض يقلقه اغلاق المسرح الدائم ، وكـان الصمت مخيفا فى المقهى ، بعض الجالسين يكتفون بقـراءات صفحـات الرياضه من الجرائد ويبدون سخطهم المنفعل من انهزام الفريق المغربى فى الجزائر ، يدخل البعض ، يخرج البعض ، البعـض يتحدثون بهمس عن محاكمة الذين أفتضح أمر تورطهم فى رشاوى مقابل مسح الضرائب الضخمة عن (الحاج ع٠٠) و (الحاج م٠٠٠) ٠٠٠٠ الخ دون دفعها الى « الصندوق » ٠٠٠ و « الباطرون » لا يتزحزح من وراء آلة الحساب التى تلتهم المال ٠٠٠ الجالسون الفوا صوتها النشاز الخشن ، اصبح لا يزعجهم ٠

دخنت مايورو ٠٠ ثم اضفت تخاطب أصدقـائك عسى أن تنزع الاعجاب بـك :

ـــ الناس فى هذه الحياة كالاسماك فى الماء ، لا يستقرون على حالة معينة ، يخضعون لضغط القوة ، الاسماك الكبرى تفترس الاسماك الصغرى ، من يتضخم يعيش على الافتراس ٠ ٠ ٠ الاسماك الصغرى مغلوب على أمرها دائما مـا دامت قوتهـا لا تتجمع ٠٠ الاسماك رخوة لا صلابة لها امام عنف الامواج ٠٠٠ تطأطىء رأسها ، تسعف التيار ولا تعارضه ٠٠٠ اللف والدوران يوقعها فى الشبكـة بدون أن تعى ذلـك ٠

ورد عليك احد اصدقـائك فى ذلك الوقت :

ـــ تشبيهك ميكانيكى غير جدلى ، تشبيهك جبرى ٠٠٠ ألا ترى أن الناس ليسوا مثل النحلة التى تبنى عشهـا فى غـاية الهندسة الرائعة ، ويمكنك أن تثقب من أسفل وعاءها الـذى صنعته كى تضع فيه عسلها ، رغم أنه مثقوب فانها تستمر فى وضع العسل دون ان تتمكن من اكتشاف انه مثقـوب ، شأنها فى

ذلك شأن الاحمق الذى أمره الطبيب أن يملأ بالماء جرة مثقوبة من أسفل ، الاحمق يستمر فى ملء الجرة التى تفرغ باستمرار .

لكنك تشبثت بعصبية بوجهة نظرك ... وقبل أن تغادروا المقهى قلت لهم :

ــ انا لن أطاطىء رأسى ولن أكون ــ مهما آتونى ــ خنفساء أنبع رائحة الطعم .

تخطو الآن وتتذكر آخر جلسة ودية مع أصدقائك قبل ان يكتشف عن سريرتك النبأ المذاع فى الواحدة .

ها قدماك تجرك الى المقهى المبتل برذاذ الضباب ... لم نعبأ بصمت أصدقائك المقصود حينما لم يردوا عليك السلام ، تكابر وتكلف نفسك أن تأخذ كرسيا بينهم وتتلهى منشغلا بقراءة الجريدة حينما تجمدت الالسن فى الافواه ، وأنت لا تقرأ فى الحقيقة شيئا من الجريدة ، حديثهم أصبح بالاشارات والحركات الخرساء كحديث الصم ، أنت كرة تتقاذفها الاشارات التى لها معنى خاص بالنبأ المذاع ، تسمع وكأنك لا تسمع أحدهم يقول لجاره بهمس :

ــ الذى كان يعيب على الاسماك رخاوتها ، وافتراس الاسماك الكبرى للصغرى تجلى بوضوح انه حرباء ، تتلون حسب الاجواء الخارجية لكى تستمر فى الحياة ، خوفا من الوقوع فى محنة « الاسماك الصغرى » .

ــ الم يقل أنه لا يمكن ان يصبح خنفساء مهما آتوه .

2 ــ الحلزون :

وضجت الطاولة بالضحك ، وأنت تغلق اذنيك المريضتين بالقطن كأنك فى غيبوبة لا تسمع شيئا وأنت تدفن نفسك خلف

الجريده ، وداخلك حرائق ، وأعباء ، وصراعات ضد التفاهه ، وسمع احدهم يقول في سخريه :

ــ الحلزون برخاوته العفنة تهرب منه الاشياء ، تنفر منــه القلوب والوجوه والاعين ، لذا يفرز سائله كلصاق يمكنه مــن الالتصاق ، يتشبث بالجذوع الواهية ، يتسلقهــا ، يركب على الظهور الغانية كى يصل الى أعلى ينتصب ويخطــف ويعلــق الاشواك ، يشوه جمال الورود ، حينما يشعر بقساوة الشتاء خارجه يفرز سائلا كلسيا ، يكون به ومنه قوقعته ذات الدهاليز الملتوية ، يختفى في كهفها ، يخفى عن اعينه الجحيم الذى يحياه الآخرون ، مبتعداً عن أنامل الاطفال الذين يمسون قرونه الوهمية، يهرب من أداء ضريبة المجابهة . هكذا كنت أحدسه حين يتعرى على حقيقتــه .

وحين بالفت في ثقلك على الكرسى الجاف قــال أحدهــم بصوت مرتفع ، بشكل يمكن لك أن تسمعه :

ــ اضرب البردعة ينهض الحمــار .

كانت الجملة موجة اطاحت بالحلزون من أعلى جذع تسلقه. تضرج وجهك دمــا ... نحنح أحدهم . قال آخر وهو يقوس طــرف عينــه :

ــ خلاص ، (ضربة بومها ولا كلمة بسمها) ... العصــا حينما تقطع وتجف لا يمكن أن تخضر أو تنفجر بالمــاء أو تعــود لتحتل مكانها في الشجرة تورق وتعطى ثماراً من جديد ... وماذا ستربــح العصا من رسم وشملها على ظهور الناس ؟

ــ الواقع أن « الحر بالغمزة والعبد بالدبزة »

3 ــ الذى يذهب بالخبــز الى الافــران :

وارعدت وازبدت فى داخلك ، وكتمت غضبــك بصمــت ، وجسمك يذوب احتقارا وغدوت كالافعى التى تهيأت لان تنفث سمها فى خصومها ، لكن قواك خانتك وخرجت مكمهــرا تجــر نيولك تجتر ذاتك ، وهم يشعرون بنشوه التعالى وتشتم الشرك الذى ضيعك ، وفى الشــارع كنت ترمق الناس والاشياء بحقد ، ٱلاسماك التى تسبح فى الماء تلفظك وتخدشك بزعانفها ، تسمعها تقول وراء قفاك كلمات كالسهام ، انــت أحقر من يســير على الارض ، والدنيا تضيق بك توســك أن لا تقبلــك ، وتشعــر برغبه فى البكاء يمتنع عنك . حينما اردت أن تتخلص من شرذمة من الذين يعرفونك جيدا قبل وبعد اذاعة النبا ، انعطفت نحــو ماسح الاحذية ، جلست ومددت رجلك ليمسح حذاءك ، ماسح الاحذية يمسح حذاءك بعناية فائقة وهو يرد على تحيات العابرين ويضاحكهم ويمازحهم فى ارتياح واطمئنان ، ليست هناك حواجز تفصل ماسح الاحذية عن ود الناس ، وان كان يقعى فى حضيض الاجرة ، فى ركن مهمل . اغتظت من هذا الذى سميته فى نفسك قزما ، وتضايقت من معاملة الناس له ، ظننت نفسك محــل سخرية ، لم تستطع أن تحتمل ما أوحى لك بانك موضع اهانة .

ـــ شوهت حــذائــى ، قطعت جــواربى .

قلت غاضبا وانت تصفعه الى حــد أدميت عينه اليســرى التى سرعان ما تورمت .

قال لك مــاسح الاحذية وهو يجهش بالبكــاء :

ـــ لن افارقك الا اذا وقفنا فى « الكوميساريا »، أنا ماسح الاحذية وانت ماسح « الانيال ».

وتحلق الناس حولكما ... لم يستطع أحد أن يخلصــك منه ، سمعت أحد الشهود الواقفين ورائك يقول :

— الذى يذهب بالخبز الى ألفران يضمن لنفسه غذاءه وسلامته ، ولا يأبه بالعرق الذى يندى له الجبين ... مسكين ماسح الاحذية سوف يبقى فى المخفر .

4 — قطرة الدم وراءك وتعود خجولا لا تستطيع مجابهة وجوه الشارع ، تهرب الى الدروب الضيقة المظلمة ، تشقها تبحث عن صمت يسترك حتى تلج منزلك . فى منزلك وأنت مبتل بالعرق وقلبك يخفق بحدة ، تقصد المرآة تنظر فيها حالة وجهك الجديدة ، تفاجأ بالمرآة قد انشق زجاجها ، الانشقاق خطوط متعددة كاشعة دائرة متفرعة من مركزها فى الوسط ، فوق مركز الانشقاق قد انحطت قطرة دم أحمر قانى مراق . تندهش بذعر حينما وجدت المرآة قد استحالت الى هذا الرسم المخيف ، تنظر وجهك عبر أطراف الزجاج المنشقة ، وجهك قد غدا عدة وجوه ، كل صورة من وجهك تختلف عن صور وجهك الاخرى المتراقصة كلها على الزجاج فى آن واحد . تزداد صدمتك حين تعثر على مصيرك الذى صرت اليه ، وضعك أصبح معقداً . يشغلك أمر نقطة الدم التى تصرخ فى وجهك ، تحتج ، تتحدى الصمت والهروب من الفضيحة ... نقطة أصبحت قاعدة تنتصب فوقها عدة علامات الاستفهام ، نقطة الدم تخنقك من عنقك ، تشدك من أسفل وجوهك ، نقطة الدم كانت وردة ، لكنها الان جمرة تحترق فوقها صور وجوهك . وتتساءل وأنت فى انفعال وغليان توشك أن تفقد اتزانك :

— هل كانت نقطة الدم بثقلها وعنفها وخطرها سبب انكسار زجاج المرآة ؟ ، هل جاءت من ابنتى العذراء ؟ ، أم من يدى ؟، أم من لسانى قد عضته اسنانى ، أم من وجهى المتكسر ؟ .

نقطة الدم أصبح انهام الان تدرك وتسأل عن ابنتك ،

وتسال عن (صباح زوجتك)، وتسال عن (الوسام)٠ وتسال عن وجهك ، وتسال عن جهك ، وتسال عن ٠٠ الخ ٠

وتجلس تتأمل القطعة المتلألئة ، بريقها يعمى الابصار ويحدث الدوران فى الرأس ٠ وتسالك زوجتك عن سبب تعبك واضطرابك وحيرتك وهذيانك ٠ يحبو رضيعك نحوك ، يخطـف من يديـك القطعة المشعة ، يجلس على مؤخرته ، يضع القطعة بين رجليه المفترقتين ، يقلبها بين اناملة ، وفجاة ينفجر بوله عليها ٠٠٠ وتدور بك الارض ، وتنهار قواك ، وتزداد اضطرابا ، ويغمـى عليـك ٠

محمـد البحتورى

نقطة تبحث عن مكان

قصة

بشير جهكار

كان وجه محجوبة الباكى مدفونا بصدره ، ويداها تتشبثان بكتفيه ، تنهد الحاج ولاذ بصمت وفى الذهن صورة لاحدى اللحظات الجميلة : الشمس تنزلق منها خيوط صفراء حمراء لتلتصق بوجه البحر المريض ، كان الموج هادئا وينعطف بخجل من تحت اسلاك الشمس الصفراء الحمراء ، والشمس ترقب وداعة البحر الصامت . على ارضية تقرب شفة البحر اعدت وزارة السياحة حفلا يوميا ، كان ذلك هدية وكسبا لاغراض تعلمها وزارة السياحة ، فى كل جولة أمزق هواء البحر الراكد ، واتجاه البحر افجر البارود الذى تتقياه البندقية دخانا رماديا ، يضيع فوق راسى ولا يذهب بعيداً . فيصفق السياح ويطرب الحصان من تحتى ، فيترك أهذاب عنقه تتماوج ، فى حين تتهادى شعيرات غرته ، وتوقع قدماه الاماميتان ايقاعا على الارضية الصلبة ،

فيهتف السياح ، ويزدحمون لالتقاط صور لحصان ، وانا شامخ باعتزاز على ظهره ، كانت عيون السياح متجهة الى الحصان اكثر من الاهتمام بى ، ومع ذلك كنت معتزا .

ــ والدن ! هكذا صاح ، وهو يبصق على وجه لحظه ، انتفضت محجوبة وهى تحدق بوجه الحاج وقالت :

ــ والآن ، ماذا ياالحاج ؟؟

ــ والآن ضعنا يا محجوبة من جديد .

جفلت محجوبة وأضافت :

ــ نعم ، ماذا تبقى لنا ، الجارات ستتحرك السنتهن وهذا يؤلمنى .

وبتشنج ازاح الحاج وجه محجوبة عنه وأمرها أن تكف عن البكاء .

وعلى ظهر الحصان الذى انبطح على بطنه وهو يئن وضع الحاج يده واحس بحنو تجاهه فبكى وعيناه الباكيتان تحرثان جسد الحصان كله : ((أهكذا تخوننى ، فتقطع بانفصال بينى وبين العيش ؟؟)) . زفر الحصان بتنهيدة ، وفوق راسه تحوم ذبابة .

((لماذا هكذا شئت أن تفصل الخيط الابيض ؟؟)). تحركت اذنا الحصان وترك شفته السفلى تتدلى بارتخاء على وجه الارض البارد .

حين أخبرت والدتى بالامر لم تجد ما تقوله سوى تشجيعها لى وقالت :

ــ ليس أحسن من عمل مع ((المخزن)) اذا كنت واثقا بقبول ((المخزن)) لك وباندفاع وبالرغبة فى تمثل اللحظة قلت :

ـــ انهم هناك يرحبون بكل من يملك حصانا ويعــرف كيف يفجــر البارود ٠

فرحت والدتى وفى الاسبوع الاخر بعت الارضية الصغيــرة التى خلفها لــى والدى بعد موته ٠ كما ان محجوبة لـم تكتم غبطتها التى نسجت عليها احلاما كثيرة ، مما زرع نوعــا مـن الحسد فى نفوس الجارات ، ولم تكتف محجوبــة بهذا الاعــلان فسرعان ما تصرفت فى اسمى ، فبدل اسمى الحقيقى حجــاج ، اشاعت ان اسمى هو الدج ، كنت الومها على هذا ، فكــانت تزرع فى قلبى الكثير من الثلج فاصمت ، وتعلن بقولها لى :

ـــ ولما لا يكون هذا الاسم تيمنا وتفاؤلا سيتحقق وأنت تملك حصانا وتقوم بمهمة مع ((المخزن)) ٠ وسنغادر هذا البناء الخشبى الى بنــاء حقيقــى ٠

* * *

حين اعتذر الحاج لوزارة السياحة لغيــابه بسبب مــرض الحصان ، لم يعط المسؤول اهتماما ٠ وقبل ان يغادر الحاج المكتب اخبره المسؤول ان السياح لم يعودوا مهتمين بالعاب الفروسية احس الحاج بجرح جــديــد فســأل :

ـــ وبماذا ستعوضون الفروسية ؟

ـــ لا ادرى ، ممكن ان نعوضها باستعراض الجمال ، وبجلب عدد من اجواق الفولكلور ٠

* * *

وفى هذه اللحظة شاع موت الحصان كما شاع اعتقال الحاج لانه يملك بندقية بــارود بــلا رخصة ٠

بشيــر جمكــــار ٠

بطاقة

أقصوصة

عبد الكريم الطبال

اوقفنى بأمر صارم ، ثم خاطبنى فى غضب وحذر فى نفس الوقت :

هات تعريفك ــ وكنت فعلا فى هيئة يرثى لها لباسا وسحنه واعصابا ــ فارتبكت فى اول الامر . ثم ما لبثت ان وضعت يدى فى جيبى المثقوب ابحث عن الضالة المنشودة . فلم أعثر على شىء . تحسست من جديد باصابعى الواهنة فى نفس الجيب الذى اعتدت أن أحفظ فيه ــ التعريف ــ للطوارىء والملابسات . فاذا بى أكرر نفس المهزلة .

وفكرت بسرعة فاهتديت باسعاف البديهة الى مواجهة الواقع بالوهم فحملقت فيه كما يحملق رغم انه يلبس البذلة الرمادية التى توحى بالهيبة لانها الآن مجرد بذلة. واللابس مجرد انسان . ربما لا يحمل فى جيبه المثقوب تعريفه الخاص .

وكان فى الامكان ان استمر فى هذا الوهم لولا انه رفع الصوت فضيع على الفرصة الذهبية .

لقد قال : ما دام ليس معك ـ التعريف ـ فافتح عينيك اذن لارى ماذا تخبىء فيهما !

فرضخت من جديد لصوت الصارخ لان البذلة حقيقة ملموسة . ففتحت عينى على سعتهما فحدق فيهما الى الاعماق ثـم قـال :

يبدو انك خطير . فانت لاتنظر الى موقع القدمين فحسب. انك تريد ان تخترق السور القائم منذ عهد اول مؤسس شريعة هذه المدينة ـ وهو كما لاتعلم ـ عهد قديم جدا متزامن مع عهد الطوفان . وارتبكت من جديد فلم تلهمنى القريحة بشىء .

ثـم قـال :

على اى حال هذه تهمة واحدة . وقد لا تكفى لكى اهديك السوار ذا المفتـاح .

فقلت ومـاذا بعـد ؟

قـال : افتح فمك . فانصعت مرة اخرى الى الصـوت الخشن . فحدق فى شدقى . وفى بقايا أسنانى وفى سقف الحلق. وفى خطوط اللسـان .

ثـم قـال : من بعـد تفلسف :

يبدو انك مشوش فعلا . فانت فيما يبـدو لم تتعلـم فى المدرسة الا كلمة لا فلسانك معقوف وشدقاك أحولان . وحلقك مقوس . وشكل فمك لا يبعث على الاطمئنان .

على اى . هذه تهمة اخـرى .

فقلت : وماذا بعـــد ؟

قـــال : سأهديك الآن اسوار ذا المفتاح .

ثم تمشيان فى ثقة أبدية على الرصيف تشقان الزحام فى جسد واحد يشبه جسد الحلق .

عبد الكريم المطبال

المفيقة

قصوصتان في دقيقتين

محمد ابراهيم بوعلو

توقفت السيارة فى احدى المنعرجات ، ونزل منها السائح وهو يجيل ببصره فى هذه المناظر الطبيعية الجميلة التى يزخر بها جنوب المغرب ...

وبدا له أن المكان خالى تماما ، ولا اثر فيها لكائن يتحرك .. أحب أن يسأل عن طريقه ، فأعاد النظر مرة أخرى يبحث عمن يدله السبيل . ولاح له عن بعد غار فى الجبل ، وكأن شيئا يلمع داخله ، فاتجه نحوه يحث الخطا ..

وعندما وقف بباب الغار بدا بداخله نور شمعة يضىء رجلا مهلهل الثياب يجلس وبجانبه امرأته تحمل بين يديها وليدها .. فالقى السائح بالتحية فردها عليه الرجل بأحسن منها ، وهو ما يزال جالسا ، وبين يديه سكين وخبزة شعير.. ثم طلب من السائح ان يتقدم .. وهو يقول : ((أهلا .. ومرحبا .. لقد اتيت فى الوقت المناسب .. ان وليدى

هذا محظوظ .. فلقد جئت فى وقـت تسميته .. حقا اننا لا نملك كبشـا لتسميه كما يفعل باقـى الناس .. ولكن على كل حال لدينـا هذه الخبزة ، وقد نبحتها الآن وسميته ...» .

عقدت الدهشة لسان السائح ، وجلس معهم يتناول قطعة من خبـز الشعيـر وهو ينظـر الى المناظر الرائعة التى يزخر بهـا جنـوب المغـرب ..

الصف الطويل

اصطحب الرجل معه ولـــده ، واصطف داخل الصف الطويل ينتظـــر دوره ، كان الزحـــام على أشـــده ، والصف الطويـــل لا يتقـــدم الا مثلمـــا تتقدم السلحفاة فى يـــوم ممطر ..

لم يغادر الصف طيلة ايـــام عديدة الا لقضاء ما لا يمكـــــن ان ينـــوب عن قضائه غيره ، فى حين يقـــوم ابنـــه بحمل طعامه وشرابه اليه ، وينوب عنه فى الصف عندما يذهب لقضاء حاجته.

وارتبط بالصف أشـــد ما يكون الارتباط كسائر الواقفيـــن فيه ، خاصة وانه بـــات قاب قوسين أو أدنى من البـــاب ، الذى اصبـــح فى امكانه ان يـــرى الداخليـــن اليه ...

عندما انتهى الدور اليـــه اخبروه بأن الفترة الزمنيـــــة المخصصة لتسجيل التلاميـــذ قد انتهـــت .

تحدث اليهم باعصاب بـــاردة ، فى اول الامر وهو يخبرهم بانه كان هنا قبـــل الفتـــرة المخصصة للتسجيل ، وكن الباب لم يكـــن يفتـــح الا لدقائـــق معدودات فى اليوم ٠٠ ولكنهم عندما لـــم يريدوا سمـــاع اقواله تحـــدث اليهم بعصبية ، الامر الذى دفعه الى ان يهجـــم على من كان يتحـــدث اليه كثور هائـــج٠٠ وتتدخـــل الشرطـــة ويلقـــى به فى السجـــن ٠٠

ويلتزم الصف هذه المرة يحمل انيته المعدنيـــة ليتنـــاول فيها وجبة طعامـــه ، ولم يكن يصطحب ابنه فى هذه المـــرة داخل الصـــف الطويـــل ٠